محمد الرابع الحسنى الندوى

تاريخ الأدب العربى

العصر الإسلامى

مؤسسة الصحافة والنشر
ص-ب ٩٣، ندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤١٩هـ- ١٩٩٨م

طبع في مطبعة

الكهنوت بيلشنك هاوس، لكنهؤ

كلمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين سيدنا ومولانا محمد و على آله وصحبه أجمعين ، وبعد!

فهذا هو الجزء الثانى من كتاب تاريخ الأدب العربى وهو جزء يحيط بشطرى العهد الإسلامي (صدر الإسلام وعصر بنى أمية) كان تأليفه من مسئوليتى ، وهو يلى الجزء الأول الذى هو في العصر الجاهلى ، وقد قام بتأليفه الأخ الأستاذ واضح رشيد الندوى وصدر قبل هذا .

لقد قمنا بتأليف هذا الكتاب على إيعاز من فضيلة أستاذنا الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى -حفظ الله - وعلى المنهج الذى اختطه لنا ، والكتاب سلسلة لأجزاء تخص العصور المختلفة ، استأثر منها الأخ الأستاذ واضح رشيد الندوى العصر الجاهلى والعصرين العباسى والمتوسط ، وترك لى العصر الإسلامي ، والعصر الحديث .

لقد صدر الجزء الأول المفتتح للكتاب حاملاً لكلمات تقديمية تلقى ضوءًا على ضرورة تأليف هذا الكتاب ، والفكرة التى يقوم عليها والحاجة التى تقتضيه من بين كتب تاريخ الأدب العربي الأخرى .

وأهم هذه الكلمات التقديمية كلمة شيخنا سماحة الأستاذ السيد ابى الحسن على الحسنى الندوى - حفظه الله - وهى التى أبدى فيها سماحته الاستحسان لتأليف هذا الكتاب ، وذكر الأهمية التى رآها فيه ، والضرورة التى

كانت تقتضى تأليفه ، فجاءت كلمته كعطاء فكرى ، وتوضيح للخط المفيد لتاريخ الأدب العربي ، وهى بذلك جديرة بأن لا تقرأ كمجرد تقديم للكتاب ، بل كجزء من الموضوع ، وكفصل من فصول الكتاب ، كما يحمل الجزء الأول كلمة لى أيضًا ، ثم كان على أن أعد الجزء الثانى في أدب العصر الإسلامي ، فقمت بإعداده بما تيسر لى من البحث والدراسة ، وبما حصل لى من توفيق الله سبحانه وتعالى .

ولقد اعتنيت في هذا الجزء من تاريخ الأدب بمدى استجابة الأدب للنظرة الإسلامية للشعر والبيان و أثر ذلك على فنيتهما .

ومما لاشك فيه أن طبيعة الشعر والبيان تنبع من الوجدان الإنسانى ، وهو موهبة من الله تعالى لغالبية أفراد البشر ، فهو يوجد فيهم ، ولا يزول بتغير المبادئ أو تغير مسالك الحياة ، بل إنما يقوم بأداء عمله في قوالب جديدة و في صور مختلفة ، وهى إذا لم تكن تعجب بعض الناس بسبب اختلاف نظرتهم وبسبب ذوقهم الخاص ، فلا يصح الحكم بردائتها على هذا الأساس ، بل إنما يحكم بمدى قيمتها الأدبية ، بناءًا على أسسها الفنية غير المنحازة .

على كل فإنى نظرت في بعض هذه الجوانب ، فإن أصبت فهو من توفيق الله وفضله ، وإن أخطأت فذلك من تقصيرى ، والله هو المسئول بتسديد الخطى وبالتوفيق للصواب ، وله المنة والفضل وله الحمد أولا وآخرًا .

محمد الرابع الحسنى الندوى

١/جمادى الأولى سنة ١٤١٠هـ　　دارالعلوم ندوة العلماء لكناؤ

القسم الأوّل

صدر الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل إلى العهد الجديد

الحياة العربية قبل ظهور الإسلام

الوضع الاجتماعي:

لقد كانت طبيعة الحياة الجاهلية قبل الإسلام طبيعة بدوية ، وكانت في وضعها الاجتماعي على صورة نظامية سطحية ، كانت لها التزامات يتمسك بها الرجل العربي في نطاق قبيلته ، وهي التي كان توصل إليها العرب بممارساتهم العملية وتقاليدهم المتوارثة ، فقد عرفوا أن مجتمعهم القبلي أو العائلي لا يمكن أن يبقى ويستمر بدون الالتزام بالوفاق القبلي ، وبدون محافظتهم على التعاون والتضامن فيما بينهم في نطاق الأسرة ، وهذا التعاون كان يقوم على مبدء " أنصرْ أخاك ظالمًا كان أو مظلومًا " ويتجلى في قول شاعرهم .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ماقال برهانا

وكان يلتزم كل فرد من أفراد القبيلة أو الأسرة بما يتعهد به أحدهم على أساس القبيلة والأسرة ، وكان يعد كرامته كرامة نفسه ومهانته مهانة نفسه ، وبذلك كانوا يتبادلون فيما بينهم التضامن والتعاضد ، ويستعينون به في مخاصماتهم ومحارباتهم فيما بين جماعاتهم القبلية والأسرية .

الإطار الجمهوري :

فنشأت فيهم بتأثير هذا النظام إطارات مشابهة لنظام جمهورى محدود . كان شريف القبيلة فيها وسيدها يحتل محل رئيس الجماعة ، وكان أصحاب الحزم والحلم يحتلون محل أعضاء مجلس الشورى ، أما عامة أفراد القبيلة والأسرة فكانوا بمثابة الجمهور ، وكانوا يحملون عند الحاجة مسئولية أفراد الجيش والمقاتلين ، وكل ذلك كان على أساس العصبية العنصرية والقبلية وبدون مقابل مادى .

الأمية مع البراعة اللغوية والأدبية :

ولكنهم مع نظامهم السياسى هذا كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، ولم يكسبوا معرفة جادة لنظم مجتمعات البشرية الراقية فيما حولهم ، كما أنهم لم يكونوا يرون أميتهم عيبًا ، لأن أميتهم لم تكن تحول دون تحقيق مقتضيات حياتهم البسيطة ، وهى التى كانت طبيعة البداوة غالبة فيها يقول الشاعر وهو القطامي :

ومن تكن الحضارة أعجبتـــه فأى رجال باديـة ترانـا

ومن ربط الجحـــاش فإن فينا قنا صلبًا وأفراسًا حسانا

وكن إذا أغرن على جنـــاب وأعوزهن نهب حيث كانا

أغرن من الضباب على حلول وضبة إنه من حان حانا

وأحيـــانًا على بكر أخينـا إذا مـــا لم نجد إلا أخانا

ولكنهم كانوا يتمتعون رغم أميتهم بصلاحيات النظر الفاحص والشعور الحاد والهمة للعمل ، وكانت حدة شعورهم هذه دافعة لهم إلى الأعمال

الانفعالية والسلوك العاطفي وإلى اختيارهم في سبيله لأسلوب معبر للكلام لنقل مشاعرهم وأحاسيسهم في صورة من اللفظ القوى والعبارة المناسبة ، واتخذوا الشعر أوسع مجال لهم في ذلك ، وبه ترقى الشعر فيهم وتقدم ، وعكف عليه أهل الطبائع الأدبية متخذين إياه أقوى أداة لتبادل مشاعرهم وأحاسيسهم الطبيعية فيما بينهم ، فظهرت فيه آثار تعبيرية رائقة ، وانتشر الشعر فيهم ، فقليلا ما كان رجل منهم لا يتذوق بالشعر ولا يقوله ، وتوسع الناس في استخدام هذه الأداة التعبيرية ، واعتمدوا عليها في كثير من شئونهم التى كانت تفتقر إلى النقل المؤثر من واحد إلى آخر أو منه إلى رهط وجماعة .

واستغلوه للوصول إلى مطامحهم العاطفية ومطالبهم الشعورية والعقلية، فيرفعون به إذا مدحوا مكانة قبيلة أو شخصية في نفوس السامعين ، ويحطون به إذا هجوا مكانة قبيلة أو شخصية في أنظار الناس ، ويكون تأثيره بقدر قوته في التعبير ، واختيار الشاعر فيه للألفاظ المؤثرة وبقدر عرضه المعنى عرضًا رشيقًا لطيفًا أو جزلاً فخمًا حسب براعة الشاعر ، وبه كان ينال قبولا وانتشارًا في الناس .

وكان الشاعر يفتخر بانتشار شعره في الناس ، ويعد ذلك سببا لقبوله وتأثيره، فقد قال شاعر مشيرًا إلى ذلك :

ألم تر أن شعرى سـار عنى وشعرك حول بيتك لا يسير

ونظرًا إلى ذلك أصبح الشعراء يستخدمون وسيلتهم هذه لدعم عزة ومجد لشخص أو قبيلة ، ولحط مكانة الشرف والكرامة من شخص أو قبيلة أخرى .

فقد مدح الشاعر الجاهلى المشهور الأعشى رجلا اسمه المحلق شاكرا

له على هدايا فكان سببا لانتشار صيته واشتهار كرامته وشرفه لدى الناس استطاع المحلق به تزويج بناته بسهولة ، وكن قبل ذلك جالسات بدون الزواج تحت الفقر والشعور بالحرمان منذ مدة ، وقرض عمرو بن كلثوم التغلبي قصيدة رائعة في الفخر بقبيلته ، فكانت سبب إعزاز لقبيلته في النفوس لمدة مديدة من الزمن حتى قال قائل :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمروبن كلثوم

وجاء العصر الإسلامي في هذه الحال ولم يكن زال عن الشعر هذا التأثير، فاستخدم المسلمون أيضًا هذه الوسيلة ، واستعملها الشعراء لأغراضهم المختلفة .

استخدم شاعر العهد الإسلامي المعروف الحطيئة هذه الوسيلة منتقدًا لصحابي كريم اسمه زبرقان بن بدر فجرح كرامته بشعره ، وذلك في قصيدة له يقول فيها مخاطبًا زبرقان بن بدر.

دع المكارم لا ترحـــل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وعد ذلك زبرقان بن بدر هتكا شديدًا لعرضه فرفع قضيته إلى حاكم المسلمين فصدر رأى الحاكم بمعاقبة الشاعر على جريمة هتك العرض .

وكان الحطيئة هذا قد قام بإزاحة تصور شنيع لحق بإسم قبيلة بنى أنف الناقة كان نظر الناس قد ساء عنه ، وذلك ببيت في شعره :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا؟

فصار أبناء القبيلة بعد ذلك إذا سئلوا من هم رفعوا رؤوسهم ، وقالوا مفتخرين . نحن بنو أنف الناقة .

وغضب شاعر العصر الأموى الكبير جرير على قبيلة بنى نمير ، فقرض

قصيدة في هجائها ، فكان بيت منها أشد إهانة للقبيلة وإهدارا لكرامتها صار أبناء القبيلة بسببه يتهربون من وجوه الناس لئلا يطعنوهم بهذا البيت . وهو:

فغض الـــطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وقد روى في هذا الصدد أن غلامًا أبله كان يخدم أسرة من الأسر العربية ، فكان يأتى إلى السوق لاشتراء طلباتها ، وكان رجل من الباعة ينتهز بلاهة الولد ويمزح به ، ويزعجه بذلك ، فشكا الولد إلى سيده فسأله عن صفة التاجر فعلم أنه نميرى ، فقال لغلامه : إذا مزح بك منذ الآن فأنشد أمامه بيتًا: " فغض الطرف إنك من نمير " فأراد الغلام ذلك ولكنه نسى بعض الكلام فقال: خفض طرفك وإلا جئت بما يسوءك تغير وجه التاجر بذلك ، وسكت ظانًا أنه يريد البيت المعروف من الشعر فغض الطرف إنك من نمير الخ....

فأدى الشعر بذلك وبغيره من الموضوعات دورًا ثقافيًا ونفسيًا كبيرًا ، ولم يزل يؤديه إلى العصر الإسلامي ، ولعل ذلك هو الذى حمل النبى ﷺ عند ما أنشد الشاعر الإسلامي شعرًا في الاعتزاز بالإسلام ودحضه الكفر واعترض عليه صحابى جليل بقوله أفي حضرة الرسول ﷺ وفي مناسبة الجهاد ؟ فقال رسول الله ﷺ دعوه فإنه أشد عليهم (على الكفار) من النبل .

وحصلت بذلك عند العرب نخبة حسنة رائعة من الشعر ، وكانت على مراتب ودرجات من الجودة والحسن سميت طبقاتها بالسموط أو المعلقات ، ثم بالمجمهرات ، ثم بالمنتقيات ثم بالمذهبات ، وغيرها ثم بغيرها من الأسماء ، وخدم شعرهم حاجات نفوسهم العاطفية والخيالية في مجال الخصومات وفي شئون الاجتماع وشئون الأسرة والعائلة و في أحوال الحب والسخط والرضا

والغضب والإعجاب والمقت ، والفرح والرثاء ، حتى زعم العرب بسبب إعجابهم بتقدمهم في هذا المجال أن اسمهم العرب هو عنوان لبراعتهم في بلاغة القول وفصاحة اللفظ ، وأن غيرهم هم العجم لحرمانهم من ذلك ، أما النثر فكان استخدامهم له ، للأغراض الأدبية قليلا ، باستثناء الخطابة فقد كان لها موضع حسن في حياتهم ، و كانت تستخدم للتأثير على المخاطبين وكانوا يستفيدون منها أيضًا .

التمتع بالهوى والرغبات والنظرة إلى المرأة وطلب الشهرة :

ومع وجود هذه الميزة فيهم مما يشير إلى صور من حياة التضامن المحدود والذوق الأدبى كانت سيرتهم الذاتية أو ممارساتهم الفردية في الحياة حرة تائهة ،متسمة في كثير من الأحيان بالإباحية والخلاعة ، قد كان فيها إدمان في شرب الخمر ، وإمعان في لعب الميسر ، وإسراف في قضاء مطالب النفس والهوى وفي المكابرة والتعاظم ، وبجنب ذلك كانوا يحبون حسن الذكر والاشتهار بالعزة والكرامة ، يريدون أن يوصفوا بها ، وكانوا يقومون له بأعمال الكرامة والإنسانية ، وكانوا يعتقدون أن لا حياة بعد الحياة الدنيا ولم يكونوا يؤمنون بالآخرة وقالوا : ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ فعكفوا على التمتع بهذه الدنيا بالقدر المستطاع ، وظنوا في الحرمان من متعها خسارة أى خسارة ، وطلبوا حسن الذكر والشهرة فليثبت بذلك عزهم في نفوس الآخرين ، وأرادوا تخليد هذه الشهرة ، وكانوا يسعون لكل ذلك ويبذلون له مالهم وجهدهم ، وكانوا ينظرون إلى المرأة كذريعة للاستمتاع واللهو ، ويرون ولادتها في بيوت أنفسهم مسئولية غير مرغوب فيها ، فكانت

طائفة من قبائلهم تندها في مهدها ، وكان الشباب منهم بصورة خاصة يرون إلى الاستمتاع بملاذ الحياة بعين الرغبة الشديدة والاهتمام ، أما التمتع بالهوى والرغبات فيقول الشاعر الجاهلى سلمى بن ربيعة عنه :

إن شواءً ونشـــــــوة ... وخبـب البـازل الأمـون
يجشمها المرء في الهـوى ... مسـافة الغـائط البطـين
والبيض يرفلن كالـدمى ... في الريط والمذهـب المصـون
والكثر والخفض آمنـًا ... وشـرع المزهـر الحنـون
من لـذة العيـش والفتى ... للدهـر والدهـر ذو فنـون
والعسر كاليـسر والغنى ... كـالعدم والحـى للمنـون
أهلكن طسمًـا وبعده ... غـذى بهـم و ذا جـدون
وأهل جاش ومـــأرب ... وحىٌ لقمـــان والتقون

ويقول طرفة بن العبد:

ندامـــاى بيض كالنجوم وقينة ... تـروح علينـا بـين بـرد ومجسـد
رحيب قطاب الجيب منها رقيقة ... بجـس النـدامـى بضـة المتجـرد
وما زال تشرابى الخمـــور ولذتى ... وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلـدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلهـــا ... وأفـردت إفـراد البعـير المعبـد
ألا أيهـذا الـلائمى أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
فإن كنت لا تسطيـع دفع منيتى ... فدعنى أبادرها بما ملكت يدى
ولولا ثلاث هن من عيشـة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبق العاذلات بشربـــة ... كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى إذا نادى المضاف مجنبًـا ... كسـيد الغضـا نبهتـه المتـورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الطراف المعمد

السخاء والشجاعة :

أما طلبهم السمعة الطيبة والكرامة فقد كان باختيار السخاء والضيافة وبأعمال الشجاعة والبسالة أو بادعائها لأنفسهم بها أو بالرغبة إلى الشعراء بأن يمدحوهم بها ، وكانوا يعطونهم على مديحهم جوائز حتى كان بعض الشعراء يتكسبون بذلك ويتخذونه ذريعة لمعاشهم ، ومن نماذج المديح بالسخاء شعر الأعشى في المحلق حيث يقول :

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة على ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق
رضيعى لبان ثدى أم تقاسما بأسحم داج عوض لا نتفرق
ترى الجود يجرى ظاهراً فوق وجهه كما زان متن الهندوانى رونق
يداه يدا صدق فكف مبيدة وكف إذا ما ضن بالمال تنفق

وأما ادعاء الشجاعة والبسالة وبيان أعمالها فمثاله :

قول عنترة بن شداد العبسى في معلقته :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغنم
ومدجج كره الكماة نزاله لا ممعن هربا ولا مستسلم
جادت له كفى بعاجل طعنة بمثقف صدق الكعوب مقوم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع ينشنه ما بين قلة رأسه والمعصم
لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررت غير مذمم

يـــدعون عنتر والرماح كأنهـــا أشـطان بـئر في لبـان الأدهـم

مازلت أرميهم بثغرة نحـــــره ولبانـه حتـى تسـربل بـالدم

فازور من وقع القنا بلبـــــانه وشـكا إلى بعـبرة وتحمحـم

ولقد شفى نفسى وأذهب سقمها قيل الفـوارس ويك عنتر أقدم

طلب الثأر وإغاثة الملهوف :

وكان الثأر مما يحمل العربى على القيام بما يسعه من بذل جهد في طلبه وشجاعة في سبيله ، وكان يعد التهاون فيه من أسباب المهانة والذلة ومثاله :

قول قيس بن الخطيم متحدثًا عن انتقامه من خصمه .

طعنت بن عبدالقيس طعنة ثائر لهـا نفـذ لـو لا الشعاع أضاءهـا

ملكت بهـا كفى فأنهرت فتقها يرى قائم من دونها ما وراءها

يهون على أن تـــــرد جراحها عيون الأواسى إذ حمدت بلاءها

وساعدنى فيها ابن عمرو بن عامر خـداش فـأدى نعمـة وأفاءهـا

وكنت امرءًا لا أسمع الدهر سبة أسب بهـا إلا كشفت غطاءهـا

فإنى في الحرب الضروس موكل بـإقدام نفـس مـا أريـد بقاءهـا

إذا ما اصطبحت أربعًا خط مئزرى وأتبعت دلوى في السماح رشاءها

ثأرت عديا والخطيـم فلم أضع ولاية أشيـــاخ جعلت إزاءهـا

وفي سبيل السمعة الطيبـة والكرامـة كـانوا قـد يلجـأون إلى اختيـار التبذيـر الشديد والإسـراف الغريـب ، وقـد يتطلـب ذلك منهـم تضحيـات في الأمـوال والأرواح ، نجـد أمثلـة منهـا في حيـاة حـاتم الطـائى وغيره مـن أجـواد

الجاهلية ، والشعر الذى قيل في الجود والسخاء ، وكان منه قيام بعضهم بإغاثة الملهوف والافتخار به ، ومثاله قول بعض بنى أسد .

يديت على ابن حسحاس بن وهب ... بأسفل ذى الجذاة يد الكريم

قصرت لـــــه من الحماء لما ... شهدت وغاب عن دار الحميم

أنبئـــــه بأن الجرح يشوى ... وأنك فوق عجلزة جموم

ولو أنى أشـــــاء لكنت منه ... مكان الفرقدين من النجوم

ذكرت تعلة الفتيـــــان يوما ... وإلحـــــاق الملامة بالمليم

وكما مر في أحد أبيات طرفة بن العبد .

الحالة الدينية :

أما دينهم فكان من أبسط وأقصر ما يكون ، كان منحصرًا في العبادة عند ما تشعر نفوسهم بالحاجة إليها ، يؤدون حقها بأى طريق يحسبونه متناسبًا مع رغبتهم ، متبعين في ذلك تقاليد آباءهم ، وكانوا يعبدون الأصنام والتماثيل ، ويؤدون طقوسًا وعادات ، ويعتقدون بأشياء موهومة ، وربما صنعوا الصنم من السكر والسويق لتحقيق رغبتهم في العبادة خلال سفرهم فيعبدونه ثم يأكلونه عند الجوع .

ظهور الإسلام وتأثيره :

ولما جاء الإسلام تعارضت رغباتهم واتجاهاتهم عن تعاليمه فخالفوه ، وتعصبوا ضده ، وآذوا المسلمين ، وقام الأقوياء من الكفار بتعذيب الضعفاء من المسلمين ، وآذوا الرسول ﷺ أيضًا ، واضطروه إلى الهجرة إلى المدينة حتى وصل الأمر إلى القتال فوقعت حروب انهزم فيها الكفار ، فحرضوا شعراءهم على

هجاء الرسول ﷺ والنيل من شرفه وكرامته ، وكان الشعر من أقوى سلاح في ذلك العصر، كانوا يتأثرون ويؤثرون به في النفوس ، فلما أشهروه ضد الرسول ﷺ وضد الإسلام أراد كبح جماحه وشره فعابه وانتقده ، وكافح المسلمون شر الكفار وكافحوا اتجاهاتهم وتصوراتهم المنحرفة ، ورباهم رسول الإسلام محمد ﷺ بأخلاقه وبدعوته وتربيته للنفوس ، وقد نجح في صياغة تصوراتهم في قالب جديد ، وملأ قلوبهم بطلب رضا الله سبحانه وتعالى مكان رغباتهم إلى اللذة واللهو ، وخلع عنهم لباس الهوى والفساد ، وأحل محله لباس التقوى ، يقول الله تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ .

مبادئ دعوة الإسلام :

بدأت الدعوة الإسلامية عملها منذ أن نزل على الرسول ﷺ الوحى من الله تعالى بقوله ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى ﴾.

وبذلك جمع الإسلام في دعوته بين الإيمان والعلم ، إنه دعا إلى تصور جديد لمكارم الأخلاق وإلى إصلاح للحياة ، وتحويلها من الفساد إلى الفضيلة ، ودعا إلى العلم والقراءة والعبودية لله تعالى ، إنه قام بتحويل اتجاه العرب من الاهتمام بمتاع الحياة الدنيا إلى الاهتمام بالفوز والفلاح في الآخرة .

البـاب الاوّل

أصول الأدب الإسلامي

الفصل الأوّل

تأثير الدين الإسلامي في حياة العرب

تغيرت الحياة العربية الجاهلية بتأثير الدين الإسلامي الذى دخل فيه العرب قاطبة ، ذلك الدين السماوى الأخير الذى جاء به - من الله تعالى - رسوله العظيم محمد بن عبدالله القرشى العربى ﷺ ، واصطبغت الحياة العربية بصبغته الجديدة في جميع مناحيها ومجالاتها ، فكان من تأثير ذلك أن خرجت الحياة العربية من حالة التفرد والانعزال القبلى إلى حالة الاجتماع والتضامن الإسلامي ، وخضعت عصبية الدم والنسب لرابطة الأخوة الإسلامية الواسعة ، كان مبدأهم في ذلك - قول الله - تعالى - ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ وقول الرسول - عليه السلام - " كلكم من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى " فحصلت بذلك وحدة إسلامية شاملة ، وزالت فوارق الدم والنسب ، وذكر الصحابى الجليل ربعى بن عامر مبدأ المسلمين في الحياة الجديدة بقوله :" الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام " فتوسعت بذلك آفاقهم العقلية والوجدانية، واتصفت حياتهم بالنزاهة في السيرة والجد في العمل والسمو في العواطف والرغبات ، وتهذبت مشاعرهم ، وأرهفت أحاسيسهم ، وتفاعل كل ذلك في

تكوين طبيعة جديدة، تختلف في الشعور والنظر عن طبيعة الحياة القديمة ، وخضع لهذه الطبيعة الجديدة اقتباسهم واتباعهم لثقافتهم القديمة ، وحياتهم السابقة ، واستفادتهم وتلقيهم من أدبهم القديم ، وذلك بالإضافة إلى الزاد الأدبى والسلوكى العظيم الذى وصل إليهم عن طريق القرآن وسنة الرسول -ﷺ-، وقد كان - ﷺ - نموذجًا للحياة الإنسانية المثالية المتحلية بالصدق والصرامة والعطف والرحابة والسمو الخلقى ، وقد قال :" بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ".

نظرة الإسلام إلى الأدب :

ظهر الرسول ﷺ وكان قد نشأ على بلاغة القول وفصاحة البيان ، لأنه من قريش ومن أكرم فرع منها ، ونزل عليه القرآن الذى اشتمل على الكلام البليغ المؤثر والبيان الزكى الرائع ، تحولت به النفوس من الضلال ومساوئ الآداب إلى الصلاح ومكارم الأخلاق ، وبذلك برز للعرب خط جديد للأدب وهو استخدامه للأغراض الإنسانية النبيلة ، وإستخلاصه من الأوحال الدنسة والمتاهات الخليعة ، فأصبح بذلك ما يتجاوز الحدود النزيهة منه محظورًا مرفوضًا ، وما ينحصر فيها ويخدمها جائزًا مقبولاً ، إنه نعى على رجال الشعر غوايتهم ومخالفة قولهم وفعلهم في جانب ، ورضى عن النثر حكمته وبيانه في جانب آخر ، فانقطعت عنه بتأثير ذلك نواحيه التائهة ، ولقد زهد لوقت ما عدد من رجاله حتى في قول الشعر ، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، وكان لهدف صالح ، فهذا حسان بن ثابت الأنصارى لم يقل الشعر بعد إسلامه إلا فيما يرضى الله ورسوله ، ويخدم الفكرة الإسلامية النبيلة ،

وهذا لبيد بن ربيعة صاحب إحدى المعلقات الشعرية زهد بعد إسلامه في قول الشعر، فلم يقل إلا نادرًا، وكذلك الآخرون من شعراء الصحابة - رضى الله عنهم - لم يقولوا الشعر بعد إسلامهم إلا في أغراض سليمة نافعة، وبدأت تظهر للشعر معالمه الإسلامية وبدأت تتكون طبيعته الإسلامية في كلام الملتزمين بالفكرة الإسلامية للشعر.

الروح الإسلامية للأدب :

ويشير إلى الروح الإسلامية للأدب والشعر ما حدث لشاعر بعد إسلامه وهو النابغة الجعدى لما قال فيما قاله :

" بلغنا السماء مجدنا وجدودنا - وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرًا ".

فلما سمع ذلك رسول الله - ﷺ - تغير وجهه الكريم، وسأل إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال الشاعر: إلى الجنة يا رسول الله " وبذلك طابت نفس رسول الله - ﷺ - لأنه عرف من شرح الشاعر لشعره أن المفهوم ليس كما يبدو من ظاهر النص بأن يكون جراءة مع الذات الإلهية، بل إن مفهومه هو التقرب إليه وطلب مثوبته وجنته، فبيت واحد من الشعر كان يدخل في حيز الإلحاد والكفر، إذا كان مضمونه مغايرًا للحق والإسلام، ولكنه يصير بيتًا من الشعر الإسلامي، عند ما يتفق مفهومه مع النظرة الإسلامية الرشيدة إلى الحياة.

ولقدظهر الاتجاه الأدبى الإسلامي المتلزم لأول مرة في كلام الرسول - ﷺ - وكان مشتملا على أنواع وأصناف أدبية مختلفة، لا على نوع واحد محدود، وقلده واتبعه فيه صحابته - رضى الله عنهم - والذين أتوا من بعدهم

من أتباعهم ، وبسطوا القول ، ونوعوه ، كل بحسب مواهبه العقلية والخيالية . ولكن ملتزمين فيه ومحتفظين بالسمة السليمة المقتبسة من المنهج القرآنى للبيان الأدبى ، ومن بيان الرسول - عليه السلام - فوجد بذلك في موضع كل لون من الأدب الجاهلى لون من الأدب الإسلامي ، الخطب في موضع الخطب، والعهود في موضع العهود ، والحكم والأمثال في موضع الحكم والأمثال ، بدون أن تنطوى على خلاعة وفساد بالإضافة إلى ما تجدد لهم من أنواع أدبية أخرى مثل الرسائل والأحاديث ، وذلك بتأثير تصورات جديدة من الحياة والإنسان .

أبقى الإسلام من التراث الأدبى الجاهلى ما لم يكن فيه فساد وانحراف أو ما غلب نفعه على ضرره ، إنه لم يعامله معاملة النفى والشطب جزافا ، بل إنما كانت نظرة الإسلام إليه كنظرته إلى الناس ، فيهم خيار وشرار قال رسول الله - ﷺ - " الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " (صحيح مسلم) وقد أثنى الرسول ﷺ على الجواد الجاهلى الكريم حاتم الطائى عند كلامه مع ابنه، فقد قال: إن أباك كان يحب مكارم الأخلاق ، واستنشد شعر أمية بن أبى الصلت وقال: " آمن لسانه وكفر قلبه ".

هكذا كانت نظرة الإسلام إلى الأدب ورجاله ، فكل ما كان خيرًا في الجاهلية عد خيرًا في الإسلام .

اعتناء الصحابة بالشعر:

ونجد عند الصحابة - رضى الله عنهم - اعتناءًا بالشعر الجاهلى

استعانوا به في فهم معانى ألفاظ القرآن ، واستفادوا به في مختلف أغراضهم النزيهة ، وقضوا به حاجات نفوسهم الملتزمة ، ويشهد بذلك ما روى عن سيدنا عمر بن الخطاب أنه اجتمع ببعض أولاد هرم بن سنان ممدوح شاعر الجاهلية الكبير زهير بن أبى سلمى ، فاستنشده سيدنا عمر بن الخطاب بعض مدائح زهير في مدح أبيهم ، فأنشده ، فعلق عليه سيدنا عمر بقوله : " إن كان ليحسن فيكم القول " قال أولاد هرم :" ونحن والله إن كنا لنحسن له العطاء " فقال: "قد ذهب ما أعطيتموه ، وبقى ما أعطاكم "[1] .

وكذلك لما اجتمع بسيدنا عمر - ﷺ - شاعر الرثاء المعروف متمم بن نويرة ، واستنشده سيدنا عمر بن الخطاب رثاءه في أخيه مالك بن نويرة الذى قتله سيدنا خالد بن الوليد قائد جيوش المسلمين، فأنشده متمم شعره الذى أوله :

وكنا كندمانى جذيمـــة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فتأثر به سيدنا عمر وقال ليت مثله قيل لأخى زيد بن الخطاب ، وكان استشهد في القتال للإسلام ، فقال متمم : " لو أن أخى مات على ما مات عليه أخوك مارثيته " فقال عمر:" ما عزانى أحد في أخى بمثل ما عزانى به متمم "[2] فهذا كله يدل على أن الإسلام لم يشطب الأدب الجاهلى كله ، بل إنما شطب الأدب الفاسق والمنافق منه .

---

[1] مختار الأغانى لابن منظور ج ٥

[2] مختار الاغانى ج٩

المفهوم الإسلامي للأدب :

فالشعر والأدب إذا تقيدا بحدود النزاهة الإسلامية النابعة من القرآن والسنة ، وأدب الصحابة ، ولم يقعا فيما نهى الإسلام عن الوقوع فيه ، من هتك الأعراض والعيث بالفساد ، فهما مقبولان في نظر الإسلام، وإلا فهما خارجان من الإطار الإسلامي ويبعدان عنه بمدى بعدهما عن الالتزام بروحه وإسلاميته ، على كل ، فإن الإسلام لم يعارض الأدب ، ولم يتخل عن مجال من مجالاته الكثيرة إلا في حدود التزامه بالحق والنزاهة ، ونفيه للانحراف والعدوان ، وبه يتعين المفهوم الإسلامي للأدب ، ويظهر منهجه لمسايرة الحياة وتمثيلها ، ويتبين أيضًا أن الأدب المشتمل على هذا المفهوم لا يعجز عن المعالجة الفنية لأى جانب من جوانب الحياة ، ولا عن تأدية رسالة الأدب الموكولة إليه ، غير أن هدف الأدب الإسلامي المفضل هو التعبير عن الحياة للبناء والإصلاح ، حينما نجد هدف الأدب الجاهلى المفضل هو تحقيق مآرب الحياة التائهة ، ومساعدتها بكل وسائل العربدة والاختباط ،وذلك لأن الإسلام لا يرضى بالحرية والتمتع بملاذها التى تكون متعة ولذة لواحد ، وهتكًا وإعتداء على الآخر ، أو إفسادًا وهدمًا لسلامة الإنسانية وخيرها .

فيدخل الأدب في الإطار الإسلامي ما دام يكون خاليًا مما نهى الله ورسوله عنه، ورضى الرسول - عليه السلام - بهذا القسم من الأدب ، فقد استمع إلى شعر العهد الجاهلى ونثر العهد الجاهلى بدون أن ينعى عليه ، إنه رضى بشعر كعب بن زهير وأعطاه جائزة عليه ، وتحدث إلى زوجته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها بحديث أم زرع ، وقال في آخره - " أنا لك كأبى زرع لأم زرع " وجرى على سنته خلفاؤه ، كما ظهر من استماع سيدنا عمر بن الخطاب

لقصيدة رثاء مالك بن نويرة ، ورغبته لكون مثل هذا الرثاء لأخيه زيد أيضًا ، وطلبه من أولاد هرم بن سنان أن ينشدوا شعر زهير في مدح أبيهم وثنائه عليه.

أهمية النثر في العهد الجديد :

أما النثر فقد عظمت أهميته في العهد الجديد ، وعظمت الحاجة إليه. وذلك - أولا - لنزول كلام الله فيه ، وهو في قمة البيان العربى ، وقد عظم تأثيره على النفوس والقلوب ، وثانيًا لعدم مجاوزة الرسول - عليه السلام - في كلامه من النثر إلى الشعر ، وهو أفصح العالمين ، وأبلغ العرب بلا جدال ، ولقد اقتضت الحياة الجديدة اللجوء إلى النثر أكثر للحاجات الدعوية ، فاشتدت عناية المسلمين العرب به ، وعظم استخدامهم له في شئونهم وأعمالهم ، فإن فيه صلاحية أعظم ومرونة أكثر لملاءمة مقتضيات الحياة الاجتماعية الجديدة ، وقضاء ضرورات الحكم ، وسياسة البلاد التى كان العرب قد أصبحوا منذ ظهور الإسلام وانتشاره في حيالها .

وأمر الرسول - عليه السلام - منذ هاجر إلى المدينة المنورة بتعلم الكتابة ، وهى أساس الثقافة والعلم ، وذريعة إلى قوة النثر الفنى وازدهاره ، واستبق المسلمون إلى الكتابة والتعليم ، حتى أصبح فيهم كتاب (أى متعلمون) في زمن قليل .

الفصل الثانى

دعائم أدب العهد الجديد

قام أدب العهد الجديد على أربع دعائم وهى :

أ- الأدب المأثور من العهد الجاهلى .

ب - ظروف الحياة الجديدة ومؤثراتها .

ج - القرآن الكريم الذى نزل ، فأثر على النفوس والقلوب ، وغير طبيعة سامعيه وقارئيه الفكرية والوجدانية والشعورية ، ومنح أصحاب الشعور الأدبى منهم صورًا ونماذج أدبية جديدة و بديعة كثيرة ، فطور وميز وأضاف في الطريقة والمنهج .

د - حديث الرسول - عليه السلام - الذى كان أضخم ثروة نثرية للعرب وكان على الأسلوب الواضح، الزاخر بنماذج مؤثرة .

الأدب المأثور :

أما الأدب المأثور من العهد الجاهلى فأكثره الشعر الذى قيل في مدة قرن ونصف قرن قبل الإسلام ، وعبر العرب به عن مشاعرهم وعواطفهم وتصوراتهم بأسلوب واقعى مؤثر أخاذ ، وله نماذج رائعة نقلتها كتب الدواوين والمجموعات الأدبية ، وظهر تأثيره على مشاعر أبناء ذلك العصر وأفكارهم ، وذلك يدل على مدى قوته وبلاغته ، وتعلق قلوب العرب به ، وأكثره

يدور في الشعر الذى قيل في جوانب الحياة العربية الخالصة ، في مختلف مناسباتها من سلم وحرب وتأملات ووجدان ، وأما النثر فكان قليلا وبسيطا في عامة الأحوال ، غير أن نماذج خاصة منه امتازت ونالت شيئا من البقاء والذكر ، وكان مشتملا على جمل الحكمة والمثل وبعض الخطب والوصايا .

ظروف الحياة الجديدة :

أما ظروف الحياة الجديدة وأحداثها فهى أيضًا دعامة كبيرة من الدعائم الأدبية التى قام الأدب الجديد عليها ، وهى نتيجة التحول الجذرى في حياة العرب الذين نحن بصدد أدبهم ، فقد أحدث التحول الديني الذى ساد العرب ، وعمهم - فدخلوا في الإسلام كافة - تحولا في شتى المجالات ، من نظرة إلى الحياة ، ومن سيرة فردية ومن سلوك اجتماعى ، كما أنه أوجد مجالات جديدة للحياة لم تكن في الجاهلية ، من عمل الدعوة للدين الجديد واختيار نظام جديد للعبادة والعبودية لله في جميع أنحاء الحياة ، ومن اختيار حياة الجد والفضيلة ، ومن بدأ حياة التمدن والحكومة ، وظهور أحوال الفتوح الكثيرة وانفتاح العالم ، فالعربى الذى كان في الجاهلية يتسكع في البطالة والهوى والجهالة ، يلتزم الآن بالجد والفضيلة والعمل ، وكانت حياته قبل الإسلام بدوية متخلفة ضيقة الحدود ، فأصبحت الآن اجتماعية متمدنة خاضعة لسلطان الحق ، وكانت الخصومات القبلية الضيقة تستولى عليه في الماضى ، أما الآن فهو يدخل في مجال الوحدة الكبيرة ويبسط سلطانه على البلدان الواسعة خارج الجزيرة ، فنظرة على تاريخ العرب قبل الإسلام ، وعلى ثقافتهم وأنماط حياتهم في الجاهلية تكشف طبيعة ذلك العهد الجاهلية والبدوية الإباحية المتحررة .

القــرآن الكريــم :

أما القرآن الكريم فهو الدعامة الكبرى من بين الدعائم الأربع المذكورة فقد أثر على طبيعة أدب العهد الجديد، وصاغه صياغة جديدة في عناصر الأسلوب الأدبى كلها ، من عاطفة وفكرة وخيال وصورة لفظية ، واشتمل على نماذج رائعة لصور أدبية قوية نابضة بالحركة والحياة في مختلف مجالات التعبير والتصوير الأدبيين .

وكان أعظم مدد للنثر الفنى الجديد ، والمثل الأعلى للمناهج الأدبية الجديدة النقية وتلقينا أيضًا بما يجب أن يؤديه الأدب الإسلامي من دور في العالم، لبناء الحياة الإنسانية الهادفة النبيلة .

نزل القرآن على الرسول محمد ﷺ منجمًا في ثلاث وعشرين سنة ، ثلاث عشرة في مكة ، وعشر سنوات في المدينة المنورة ، ولما كانت الحياة في مكة حياة دعوة وتبليغ وفتح طريق بين القلوب المتمردة الجامحة والنفوس المتأبية القاسية ، كانت الآيات القرآنية التى نزلت فيها قصيرات الجمل رائعة الفواصل شبيهة بالسجع ، فالجمل مليئة بالقوة البيانية والتأثير اللفظى طبيعية المعنى وبسيطته، أما في حياة المدينة فكان المسلمون في قوة ووحدة نظام ، ولم يكونوا في حالة ضعف فكانت الآيات المنزلة فيها حافلة بتوجيهات رشيدة ، ومعانى التربية وتنظيم الحياة تنظيمًا عادلا مفيدًا ، فقل فيها أسلوب البديع وطالت الفقر ، وحفلت بالمعنى الغزير ، واشتمل القرآن على مائة وأربع عشرة سورة ، منها كبيرة وصغيرة ، أطولها سورة البقرة ، وهى تشتمل على مائتين وست وثمانين آية ، وأصغرها اشتملت على ثلاث آيات ، وهى في الجزء الأخير من القرآن ، والقرآن ثلاثون جزءًا ويشتمل القرآن على

معانى الدعوة والإصلاح والتوجيه والتربية والتشريع والتعليم ، وقد ذكر حوادث وقصصا للأنبياء السابقين ، وكل ذلك تفتح القلوب المغلقة للدين الإسلامي .

أسلوب القرآن :

جمع القرآن بين غزارة المعنى وإحكامه ، ورصانة اللفظ وفصاحته ، واشتمل على نواح فكرية ونفسية مختلفة ، من تشريع وتهذيب و وصف ، في أبلغ الصور البيانية معنى وعبارة ، وأشدها وأسماها تأثيرًا ومكانة ،مع عدم التقيد بقيود الفن المفروضة ، أو طرق أدبية مرسومة ، بل سار على التجديد والابتكار والتنويع والإعجاز .

طريقته بين الطريقتين :

وليست طريقته طريقة الشعر الذى يتبع خطة نظم مألوف ، وليس من النثر المطلق الخالى من جمال التعبير ومحسنات اللفظ والإيقاع أيضًا ، بل إنها طريقة بينهما تتقيد بقيود تشبه في بعض خصائصها قيود الشعر الجميلة وتتحرر في أخرى بحيث تشبه النثر الفنى الجميل ، ولكنها تفوق طريقتى الشعر والنثر كلتيهما على كل حال ، وتحمل تأثيرًا أعظم من تأثيرهما ، وفائدة أوسع من فائدتهما ، وجمالا أسحر ومعنى أغزر منهما جميعًا .

جمال العبارة وعذوبة الصوت :

فحينًا يمتلئ أسلوبه بجمال العبارة وتأثير اللفظ مع جزالة المعنى وقوته فتحمل تأثيرًا أشد من تأثير الشعر ، وعذوبة أشد من عذوبته ، وتحمل أواخر آياته مع تحررها من قيود النظم المقررة جرسًا شعريًا مؤثرًا ، وهى

تسمى " بالفواصل " عوضًا عن القافية والرديف . فهى لا تجرى على مجرى صوتى أو وزنى واحد ، وأسلوبها ليس على أسلوب السجع أيضًا بالمعنى الدقيق للسجع ، ويراعى القرآن هذه الفواصل فيؤثر بذلك أثرًا بليغًا ، وينوعها، فلا يلتزم دائمًا بتساوى الفقرتين ، بل قد تكون إحداهما قصيرة ، وأخراهما طويلة ، وأحيانا لا تتحد الحروف الختامية ولكنها لا تخلو من التناغم الجميل.

موافقته للنفسية والوضع وتنوع عباراته حسب المقتضى والمعنى:

وأصل أسلوبه هو اتباعه للأغراض الفاضلة التى أنزل لأجلها ، مع موافقة كاملة بارعة للنفسية التى يملكها مخاطبوه ، وللأجواء الذهنية والوجدانية التى يسبحون فيها ، ولذلك تنوعت أساليب القول فيه بتنوع الحالة والموضوع ، وباختلاف مستوى الوعى الوجدانى والنفسى للمخاطبين ، وكل ذلك في تناسق دقيق وانسجام لطيف .

كما تتنوع بين الشدة واللين ، والترغيب والترهيب ، والوعيد أيضًا بقدر ما يحتاج إليه الوضع ، وتقتضيه حكمة الدعوة ، فحينًا تشتمل الآيات على تشريع أحكام وتوجيه إرشادات ، وحينًا تشتمل على تفصيل صور الجزاء والعقاب ، أو بيان قصص الدعوة وحياة الأنبياء ، وفي كل ذلك تنسجم بتراكيبها وأصواتها وأصنافها مع الجو والموضوع والنفسية .

﴿ قال إنى عبدالله ، آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيًا وجعلنى مباركًا أين ما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيًا ، وبرًا بوالدتى ،ولم يجعلنى جبارًا شقيًا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًا، ذلك عيسى بن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من

ولد ، سبحانه إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن ، فيكون وإن الله ربي وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم ، فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم، أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ، وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر ، وهم في غفلة وهم لايؤمنون ، إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ، وإلينا يرجعون ﴾ مريم .

﴿ ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجرًا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم فستبصر ويبصرون ، بأيكم المفتون ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، فلا تطع المكذبين ، ودوا لو تدهن فيدهنون ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخرطوم ، إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ، إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ،فطاف عليها طائف من ربك ، وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم﴾ (ن).

الفخامة والرقة :

وقد تتجلى في الآيات حينًا فخامة المعنى وجلالة الموضوع ، كما في سورة الحج وسورة المؤمن ، وحينًا تتجلى منها الرأفة الظاهرة واللطف الأنيس، كما في سورة مريم وسورة الأنبياء .

الجمال الصوتي والتناغم :

أما التناغم والجمال الصوتي الجميل فله أيضًا نماذج مختلفة ، كثيرة، كما في سورة الفرقان وسورة ق وسورة القمر ، وسورة الرحمن ،

وسورة المرسلات وغيرها .

ضرب الأمثال :

ويزخر الكلام القرآني بتمثيلات رائعة بديعة وضرب الأمثال ، وإنها تسوق النفس الإنسانية إلى معرفة الذات الإلهية والاقتناع بسمو الدعوة النبوية .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رياء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل فتركه صلدًا ، لا يقدرون على شئ مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين ، ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير ﴾ (البقرة).

﴿ قل الله خالق كل شئ ، وهو الواحد القهار ، أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدًا رابيًا ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ (الرعد).

﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شئ عليم ﴾ (النور)

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز ﴾ (الحج).

تصوير المعانى والمشاهد :

وكذلك نجد أسلوب القرآن مليئًا بتصوير المعانى والمشاهد تصويرا صادقًا محسوسًا ، وذلك من السمات الأدبية في القرآن ، وإنه يشرح به النفوس المقفلة ، ويفتح العقول المغلقة لفهم الحقائق الدينية الناصعة وتلقيها.

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءًا حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج، من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور﴾ (النور).

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شئ عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (الحج).

﴿ والعاديات ضبحًا ، فالموريات قدحًا ، فالمغيرات صبحًا، فاثرن به نقعًا فوسطن به جمعًا ، إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد ﴾ (العاديات).

الأقسـام :

ومن أدوات التأكيد الأدبى والنفسى في القرآن هى الأقسام التى وردت كثيرًا في مفتتح السور، وقد تكررت أحيانًا في موضع واحد، فزادت المعنى قوة، والعبارة روعة، والتعبير جمالا، وهى تتفق مع الموضوع الذى تفتتحه، وتؤيده تأييدًا نفسيًا، وتزيد في القوة والإقناع.

﴿ والنازعات غرقًا، والناشطات نشطًا، والسابحات سبحًا، فالسابقات سبقا، فالمدبرات أمرًا، يوم ترجف الراجفة، تتبعها الرادفة، قلوب يومئذ واجفة، أبصارها خاشعة ﴾ (النازعات).

﴿ والتين والزيتون وطور سينين، وهذا البلد الأمين، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم، ثم رددناه أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون، فما يكذبك بعد بالدين، أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ (التين)

﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ (الواقعة)

﴿ لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة، أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه، بلى قادرين على أن نسوى بنانه﴾ (القيامة)

فروق المعنى ودقائقها :

وفي القرآن رعاية دقيقة لفروق المعنى، فقد تختلف وتتعدد أشكال لفظ واحد أو صور استعماله، ولا يقتصر اختلاف أشكاله على جمال لفظى فحسب، بل تكون وراءه نكت معنوية بديعة، تدل على بلاغة القرآن وأسلوبه المعجز المدهش، كما في بناء كلمة " نعمة " فعند ما استعملها القرآن مكسورة

الفاء استعملها في موضع المدح ، وعند ما استعملها مفتوحة الفاء كانت في موضع الذم .

وكما في كلمة " الريح " فعند ما استعملها مفردة أراد العذاب ، وعندما استعملها جمعًا استعملها رحمة وإنعامًا .

وكما في كلمتى " على وعال " فقد استعمل الأول في موضع الخير ، أما الثانى فقد استعمله في موضع السوء بوجه عام ، وهناك أمثلة كثيرة لفروق المعانى ، ولها أصناف وألوان عديدة مختلفة في القرآن .

صوتية الألفاظ :

ومن جمال عبارة القرآن هى رعايته للأثر الصوتى الذى تتركه الكلمة على نفس المخاطب ، فإنه يراعى في ذلك أيضًا الجو النفسى والوجدانى للمخاطب في كثير من الأحيان ، فتؤثر الكلمة على ذهن المخاطب بشكلها ومبناها نفس التأثير الذى يؤثر به معنى الكلمة .

ككلمة " إثاقلتم " لمعناها في آية ﴿ مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا ، الخ﴾ .

وككلمة " دمدم " لمعناها في آية ﴿ كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾ وككلمة " هواء " لمعناها في ﴿ أفئدتهم هواء ﴾ وكلمة " دكا دكا" لمعناها المستعمل فيه ، وكلمات " يتفطرن " و " تنشق "و "هدًا" في آية ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا أن دعوا للرحمن ولدًا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدًا ﴾.

التشريـــع :

والتشريع من أهم موضوعات القرآن ، وقد شغل منه مكانًا واسعًا ، وأسلوبه فيه أسلوب هادئ محكم وقوى مقنع .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شئ فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب ، لعلكم تتقون ﴾ (البقرة).

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب، وليملل الذى عليه الحق ، وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئًا ، فإن كان الذى عليه الحق سفيهًا أو ضعيفًا أولا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله ، ذلكم أقسط عندالله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ﴾ (البقرة).

القـــصص :

وكذلك نجد في القرآن قصصًا كثيرة لحياة الدعوة وجهود الأنبياء ورد أممهم عليهم ، وهى تشتمل في مختلف المواضع على مختلف الأساليب القصصية ، منها عرض مشاعر الحنان والانطباعات البشرية الدقيقة وكل ذلك على النسق البليغ ، حسب النفسية والمراد ، ونجد أمثلتها في سور قرآنية

كثيرة مثل " البقرة " و"الأعراف " و " يوسف " و " هود " و" الكهف " و " مريم و" الأنبياء " و" القصص " وغيرها .

الموعظـة والهدايـــة :

وهى أهم موضوع قرآنى و كثيرًا ما تختتم آياته به ويتخللها أيضًا . وقلما تخلو آيات القرآن منها . وهو أيضًا من أسباب ازدياد الروعة الأدبية في الآيات مع عرضه الرئيسى للمقصود .

وبعد فإن الاستيعاب بصور التعبير القرآنى الجميل الكثيرة صعب ومستحيل ولم نسق فيما سبق إلا نزرًا قليلا منها لتكون إشارة بسيطة إلى قوة التعبير القرآنى ، وجماله وإعجازه ، ومن أراد التوسع فعليه تلاوة القرآن والتدبر فيه بنفسه .

تأثير القرآن في الأدب:

ودوى المسلمون بالقرآن دوى النحل، وتذوقوه في موضوعه وأسلوبه، وتشربوا روحه ، واتخذوه إمامًا في الأدب وتلاوة في الصلاة وقانونًا يحكم فيما يعرض من أحداث ، ومادة لغة وشاهدًا على صحة التعبير وجودة الأسلوب، وكان أثره في النثر أكثر من الشعر، فإن الأول قد قصر استفادته واقتباسه على القرآن، وحديث الرسول عليه السلام، أما الثانى: فقد كان أصل اقتباسه من الشعر الجاهلى، مع الاستفادة بأدب القرآن أيضًا .

البـــاب الثانى

الفصل الأول

النثـــر وأعلامـــه

نمو النثـر وقوتـــه :

بتأثير القرآن وبتأثير قيم الحياة الجديدة ومقتضياتها بدأ النثر ينمو ويقوى منذ هذا العصر ، وتوسع نطاقه أكثر من ذى قبل ، واستمر له ذلك حتى وصل إلى ما وصل إليه من الغزارة والكمال ، والبراعة ، والجمال .

كان النثر في هذا العهد أكبر مقدارًا وأوسع مدى لكونه مجالا للدين الجديد والتوجيهات الدعوية والتربوية والتشريعية التى حفل بها كلام الرسول ﷺ وصحابته الكرام ، ففاق في الجودة والمقدار على نثر العهد الجاهلى كثيرا جدًا .

يمتاز النثر في هذا العهد النثر في العهد الجاهلى في أمور ، منها:

١- إنه كان موثوق الرواية ثبتًا أكثر ، لاهتمام ناقليه بالصدق والدقة .

ب - وكان يحمل قوة ونفعًا وتأثيرًا واستفادةً في أغراضه وأساليبه من القرآن الكريم .

ج- وكان أفصح ألفاظًا وأسهل تركيبًا وأعذب تعبيرًا وأمتن سبكا وأبرع دلالة وأنق ديباجة .

وغلبت عناية المسلمين بالنثر على عنايتهم بالشعر، وذلك لأسباب، منها :

١- سقوط مكانة الشعراء في نفوس الناس لتكسبهم بالشعر مثل الأعشى والنابغة وغيرهما .

ب- وتعرض الشعراء لرسول الله ﷺ بالهجاء وهو في نفوس العرب المسلمين، ونهى رسول الله ﷺ عن الشعر إذا كان يخدم أغراضًا خسيسة وكان ذلك بصورة غالبة في ذلك الحين، فبهذا وبذلك ضعفت أهميته في نفوس المسلمين .

ج- وتعرض الشعراء بعضهم لبعض بالهجاء القبلى فكان يثير ذلك الأحقاد فيما بينهم، وكانوا يفحشون في الغزل فمنع رسول الله ﷺ من ذلك حتى ورد في كلامه " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا خير من أن يمتلئ شعرًا " فاحترز عدد من الصحابة رضى الله عنهم عن قول الشعر .

د- ثم بهر العرب ببلاغة القرآن وإعجازه التعبيرى وهو في النثر ثم شغلوا بالفتوح فلم يتسع وقتهم لأن يشغلوه بالشعر فضعف عكوفهم عليه .

وفي نفس الوقت احتاج المسلمون إلى الخطابة للاستفادة بها في سبيل الدعوة ولتحميس الجند للوعظ ومخاطبة الجماهير ولأعمال دينية وسياسية ومدنية .

النثر الفنى في هذا العهد:

كان أبرز أقسام النثر الفنى في العهد الجاهلى هى الخطبة والوصية . وكانتا تشتملان بوجه عام على أقوال حكيمة، والأمثال والأسجاع وشئ قليل من الروايات . ولما جاء الإسلام استخدم هذه الأقسام النثرية كلها في أهداف

الديـن الجديـد ، وفي أغـراض الحيـاة الجديـدة المتطـورة ، وزاد فيهـا قـوة وانسجامًا، وذلك لتأثير المناهج والصور الجديدة التى ظهرت في نص القرآن العربى المقدس ، وقويت الخطابة في هذا العهد ، وعظم استخدامها في شؤون الحياة الاجتماعية والخلقية الجديدة ، وأصبحت تلعب دورًا كبيرًا في خدمة الدين الجديد ، وبناء المجتمع الإسلامي ، وتطورت الوصية ، ونشأت على غرارها العهود والعقود والرسائل فيما بعد ، ونشأت بعض أصناف النثر الأدبية الأخرى أيضًا مثل التوقيعات ، وهى تشبه الأمثال والأسجاع بعض الشبه .

محمد رسول الله - ﷺ -

كلامه خير نموذج لأدب النثر العربي

خير النماذج النثرية وأبلغها بعد بدء تأثير الإسلام والقرآن على الأدب العربي ولغته بدون أن يتأثر بتيارات أدبية مقارنة خارجية هى ما آثر عن رسول الله - ﷺ - وهو صاحب حياة نقية طاهرة ، ولد في أفصح القبائل العربية قريش ، وربى في أفصحها أيضًا ، وهى بنو سعد ، ثم تربى على الوحى الإلهى والإلهام السماوى ، ثم تعلم من مأدبة القرآن أحسن تعلم ، فمن يكون أعذب لفظًا وأحلى منطقًا وأصدق كلامًا وأبلغ عبارة منه - ﷺ -.

وكلامه هو الدعامة الرابعة من دعائم أدب العهد الجديد التى كان لها تأثير في تكوين هذا الأدب ، وقد صبغه بالصبغة الجديدة ، ورسم له منهجًا أدبيًا خاصًا تجلى في كلام من برز في هذا العهد من رجال الكلام المؤثر البليغ .

وهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى من قريش ، وقريش أشرف قبائل العرب لسدانتهم للكعبة ، وهى مكان عبادة العرب في البلد الأمين مكة التى كانوا يحجون إليها فيطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، وكان فرع رسول الله ﷺ من قريش أكبر فرع وأشرفه ، وكان لآبائه مهابة ومحبة في قلوب العرب أكثر .

ولد ﷺ في عام الفيل ، و والده توفي وهو في بطن أمه فكفله جده ، وتوفيت أمه وهو ابن ست سنين ، وتوفي جده وهو ابن ثمانى سنين فكفله عمه

أبوطالب ورضع في بنى سعد ، وهى قبيلة من عليا هوازن ،وتعد من فصحاء القبائل ، فربى وترعرع في مهد الفصاحة إلى أن بلغ أربعين سنةً فنزل عليه الوحى ، واستمر ينزل عليه ثلاثا وعشرين سنة فكان أعظم منهل بيانى له بجنب كونه منهلا تربويًا وتوجيهيًا دينيًا .

وتوفي رسول الله ﷺ وعمره ثلاث وستون سنة وترك حين وفاته مات الآلاف من أتباعه تربى عليه الألوف منهم .

كلامه نثر وليس شعرًا:

نصوص رسول الله - ﷺ - الأدبية هى كلها من النثر ، ولم يقل شعرا قط ، ويشهد بذلك كتاب الله - تعالى - أيضًا ، بقوله : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ غير أنه كان يملك معرفة وبصيرة تامة بالشعر ، وقد سمعه من صحابته ، واستحسن الحسن منه وأبدى فيه رأيه ، وأمر باستخدامه عندما وجد الحاجة ماسة إليه كوسيلة للتأثير والإقناع لها أهمية في ذلك المجتمع .

خصائص كلامه وأصنافه :

كلامه نثر مرسل ، وبديع أيضًا ، سهل مأخذه ، وعذب مورده ، وجمع معانى غزيرة في جمل قصيرة ، هو موجز في موضع الإيجاز ، ومسهب في موضع الإسهاب ، ولم يكن يتكلفه تكلفًا ، بل كان يتكلم عن سجية نفسه ، يهجر الغريب الحوشى ، ويرغب عن الهجين السوقى .

واشتمل كلامه على أصناف أدبية عديدة من مقتبلات بارعة ، وحكم عالية ، وأمثال رائعة ، ووصايا نافعة ، واشتمل على معانى التوجيه والإرشاد .

والتشريع والتربية ، فكان مادة غزيرة للغة وأمثلة رفيعة للأدب ، وثروة قيمة للأخلاق .

أبرز أقسامه الأدبية :

وأبرز أقسام كلامه هى أحاديثه وخطبه وأدعيته ، ولم يخل كلامه من نماذج الرسائل والعهود والعقود أيضًا .

أحـاديثـه :

أما أحاديثه فقد اشتملت على مختلف أصناف الكلام ، وقد حفظ لنا التاريخ منها ثروة للدين والمعرفة والأدب ، اشتملت على مختلف جوانب حياته وحياة عصره ، ورواها طائفة من صحابته الصادقين - رضى الله عنهم وأرضاهم- وهى تجمع معانى كثيرة في ألفاظ قليلة مع وضوح وبيان ، قال - ﷺ- وهو من كلامه البديع .

"إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودًا فلا تعتدوها . وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم ، من غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها " وقال:" إن الله كره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ".

وقال :" بادروا بالأعمال سبعًا ، هل تنتظرون إلا فقرًا منسيا أو غنى مطغيًا أو مرضًا مفسدًا ، أو هرمًا مفندًا ، أو موتا مجهزًا ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر ".

وقال :" أمرنى ربى بتسع أوصيكم بها ، بالإخلاص في السر والعلن ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكرًا ، ونطقى ذكرا.

ونطرى عبرًا ".

أما أدبه المرسل فمثاله حديثه - ﷺ - عن أبى هريرة - رضي الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :" من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه "

(رواه مسلم).

تمثيلاتـــه :

قال :" إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها ، وسقوا ، وزرعوا ، وأصاب طائفة منها أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ".

خطابتـــه :

أما خطبه فقد اشتملت على متانة القديم وسذاجته ، وغزارة الجديد وسهولته ، تشتمل على كلام فصل وكلمة جامعة فكانت مؤثرة ، وقوية تهز

النفس ، وغزيرة المعنى تحوى حكمة وموعظة وروعة أدبية ، وهنا نسوق مثالا لإحدى خطبته الساذجة .

خطب في حجة الوداع وهو في منى ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعته . واستفتح بالذى هو خير . أما بعد ! أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا في موقفى هذا . أيها الناس، إن دمائكم وأموالكم حرام عليكم ، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، في بلدكم هذا . ألا هل بلغت. اللهم اشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع . وأول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبدالمطلب "

وقال : " أيهاالناس . إنما المؤمنون إخوة . ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه منه . ألا هل بلغت . اللهم اشهد . فلا ترجعن بعدى كفارا . يضرب بعضكم رقاب بعض . فإنى تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله . ألا هل بلغت . اللهم اشهد ".

" أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب . أكرمكم عندالله أتقاكم . وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى . ألا هل بلغت . وقالوا نعم . قال : ألا فليبلغ الشاهد الغائب ".

وذكر أنصارى لرسول الله ﷺ : إن الأنصار وجدوا في أنفسهم على ما رأوه من إيثار رسول الله ﷺ غيرهم عليهم في توزيع الغنائم .

فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : " يا معشر الأنصار ما قالة بلغتنى عنكم . وجدة وجدتموها في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله بى . وعالة فأغناكم الله بى . وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : ألا تجيبونى يا معشر الأنصار . قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله . لله ولرسوله المن والفضل . قال أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتكم . أتيتنا مكذبا فصدقناك ومخذولا فنصرناك . وطريدًا فآويناك، وعائلا فواسيناك . أووجدتم على يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا . ووكلتم إلى إسلامكم . ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير . وترجعون برسول الله إلى رحالكم . فوالذى نفس محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به . ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار . ولو سلك الناس شعبًا و واديًا وسلكت الأنصار شعبًا و واديًا لسلكت شعب الأنصار و واديها .

الأنصار شعار والناس دثار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار . وأبناء أبناء الأنصار . قال فبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم . وقالوا رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا ".

أدعيتـــه :

أما الأدعية فكانت صنفا جديدًا ظهر لأول مرة في الأدب العربى . امتثالا لتعليم القرآن . واتباعا لما قصه القرآن عن عباده الصالحين . وكانت من أقوى أصناف الأدب .

وأدعيته - ﷺ - خير نموذج وأقواه في هذا الصدد . وأسلوبها أسلوب محكم غزير . يصور نفس الداعى . وعاطفته الجياشة . وضراعته وتواضعه بين يدى ربه . في بلاغة عجيبة .

وهذا دعاؤه الذى دعا به في الطائف . وقد كان غريبا فيها بعيدا عن

الوطن ، جاء إليها ملتمسًا لمن يساعده بالنصرة ، بعد أن كان عمه أبو طالب قد توفى ، وكان يحرسه من أذى قومه ، وكانت زوجته خديجة توفيت أيضا ، وكانت تؤازره وتعزى نفسه ولكنه لم يجد من أهل الطائف ،وهى المدينة الأخت لمدينة مكة ، إلا أشد مما وجده في مكة من رفض قاس من سادتها ، ومتابعة الأشرار له ، ورميهم إياه بالحجارة إلى أن دميت رجلاه ، وبلغ منه التعب مبلغه ، فلما خرج من عمران الطائف ، ولم يكن استراح حتى برهة من الوقت بعد سفره الشاق الطويل من مكة جلس في مكان خارجى لم يكن له فيه من الناس مواس ولا أنيس إلا خادمه ومولاه زيد بن حارثة - ﷺ -دعا بهذا الدعاء الذى كان مرآة أدبية صادقة لنفسه المكلومة المليئة بالشعور بالألم مع المحافظة على العبودية لربها وخالقها .

" اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس رب المستضعفين إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن يحل بى غضبك أو ينزل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ".

وهذا دعاؤه في عرفات :

" اللهم إنك تسمع كلامى ، وترى مكانى ، وتعلم سرى وعلانيتى ، لايخفى عليك شئ من أمرى ، وأنا البائس الفقير المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، ودعاء من خضعت لك رقبته ،

وفاضت لك عبرته ، وذل لك جسمه ورغم لك أنفه. اللهم لا تجعلنى بدعائك شقيا وكن لى رؤوفًا رحيما ، يا خير المسئولين ، ويا خير المعطين".

أقوالـــه الســـائرة :

الآن حمى الوطيس- هدنة على دخن- يا خيل الله اركبى - لا ينتطح فيه عنزان - رويدك رفقًا بالقوارير - هذا يوم له ما بعده - وغيرها من الأقوال .

ومما لاشك فيه أن نصوص بلغاء الناس إنما تشير إلى خصائصهم الذاتية والموضوعية والأدبية ، وتجلو لنا كثيرًا من ملامح شخصياتهم النفسية والفكرية والوجدانية والأدبية ، وتصور أصحابها تصويرًا لفظيًا يتبينه كل من يقرؤها ويدرسها ، وهو الذى يتجلى من نصوص رسول الله - ﷺ - من سمو النفس ونقاء الصدر ، ودقة النظر وصدق الشعور وصفاء الديباجة وجمال القصد وبلاغة القول .

الفصل الثانى

نصوص النثر الفنى للآخرين من هذا العهد

سار النثر سيره على هذا الخط يتوسع ويتنوع مزدانًا بالخصائص الفنية الجديدة التى وجدت فيه ، تبعًا للأحوال الجديدة وبتأثير أدب القرآن ونصوص الرسول - ﷺ -.

وظهرت نماذج هذا النثر في الخطب والعهود والرسائل والتوقيعات بصورة عامة ، كان من خصائصه الإيجابية والتفكر وموافقة الواقع ، وتمثيل الحياة العربية الإسلامية المتدرجة إلى الرقى والعلم والقوة والازدهار.

الخطابـــة :

واعتمد النثر الفنى في هذا العهد على الخطابة أكثر من غيرها ، لأن الأغراض الغالبة في هذا العهد كانت الدعوة والإصلاح والإدارة والسياسة والحكم ، وتعمل فيها الخطابة أكثر من غيرها.

واختلفت الخطابة في هذا العهد منها في الجاهلية في أغراضها ومعانيها بمثلما وقع للشعر أيضًا إلى مدة من الزمن ، ولكن ظل أسلوبها على منهج يقارب المنهج الجاهلى لها وهو قصر في الخطاب والإيجاز في الجمل مع شئ كثير من الموازنة ، وشئ قليل من السجع واقتباس أو تضمين للأمثال وما أشبهها ، واستفادت الخطابة في هذا العهد من نفحات البيان القرآنى واتخذت الأسوة لها من خطابة الرسول ﷺ ، وهو صدق في القول ونصيحة للمخاطبين.

ومن أبرز من نجد نماذج خطابتهم في هذا العهد الخلفاء الراشدون وبخاصة منهم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طـــالب -رضى الله عنهم -.

أبو بكر الصديق ﷺ

سيرته وأخلاقه :

هو عبدالله أبو بكر بن أبى قحافة ، ولد عام ٥٥ ق هـ (٥٦٨م) في مكة في أسرة وجيهة من قريش وهى تيم ، فشب ذا مكانة في قومه عارفا بالأنساب مسموع القول ، وكان يعمل في التجارة ولذلك كان على شئ من اليسار ، وكان محببًا إلى الناس ، سهل المعاشرة حسن المجالسة ذا خلق ومعروف ، كان أول من أسلم في الرجال ، وآمن برسول الله ﷺ ثم مضى يدعو أصحابه إلى الإسلام فأسلم على يديه خيرة أبناء قريش مثل عثمان بن عفان وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وعبدالرحمن بن عوف وهو وكل هؤلاء من العشرة المبشرة بالجنة من رسول الله ﷺ ، وصدق أبو بكر ﷺ معراج رسول الله ﷺ فلقب بالصديق ، ولما كانت الهجرة إلى المدينة استصحبه رسول الله ﷺ بأمر من الله تعالى ، وكان رفيقه في الغار وذكر بهذه الصفة في القرآن.

وخلف أبوبكر ﷺ رسول الله ﷺ في إمامة الصلوات خلال مرض وفاته ، ثم اختاره المسلمون لخلافته بعد وفاته ، فقام بأمر الخلافة أحسن قيام سنتين من ١١/إلى ١٣/للهجرة ، وكان من أهم ما قام به من الأعمال في هذه المدة هو إخماد فتنة الردة التى كانت استفحلت إثر وفاة الرسول ﷺ ، وأرسل الجيوش للفتوح وجمع القرآن في مصحف واحد وكان قبل ذلك متفرقًا ، فعد بهذه الأعمال فريدًا من أصحابه ، وكان شديدًا على نفسه في نيل حقه من

بيت مال المسلمين ، وعاش في شظف شديد بسبب تقواه وخوفه . كان خطيبا بليغ الكلام مقلا جالبًا للمعانى الكثيرة في عبارة وجيزة ، واشتمل أسلوبه على السهولة والمتانة ، وهى سمة خاصة من سمات أدبه وفكره .

نموذج من خطبتــه :

لما توفي رسول الله ﷺ وأصبح الناس في هرج ومرج من وطأة الحادث وشدة الفاجعة حضر أبوبكر ﷺ وخطب أمام الحاضرين خطبة مؤثرة قال فيها :

" أشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله ، وأشهد أن الكتاب كما نزل ، وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين " في كلام طويل ثم قال :

"أيها الناس من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبدالله فإن الله حى لا يموت ، وأن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعًا ، وأن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه . وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ، ومن فرق بينهما أنكر ، يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولايشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ، ولا يفتننكم عن دينكم فعاجلوه بالذى تعجزونه ولا تستنظروه فيلحق بكم ".

وخطب حين بايع الناس البيعة العامة .

حمد الله وأثنى عليه أولا ، ثم قال " أيها الناس إنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم ، ألا إن أقواكم عندى الضعيف ، حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى ، حتى آخذ الحق منه ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ".

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

سيرتــه وأخلاقــه :

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عدى بن كعب بن لؤى القرشى ، ولد نحو عام ٤٠ ق هـ (٥٨٣م) وكان من أشرف قريش ، تعلم الكتابة وتقلب في التجارة بين اليمن والحبشة والشام والعراق حتى فخم أمره وعظم قدره ، وجعلت له قريش السفارة بينهم وبين قبائل العرب في السلم والحرب .

وكان عمر في بادئ الأمر شديد العداوة للمسلمين ، فلما رأى ضجر قريش من دعوة الإسلام أراد أن يقتل النبى ﷺ ودخل في طريقه إليه على أخته فاطمة وزوجها وهما مسلمان فضربهما ولكنه لما سمع القرآن رق قلبه ، وذهب إلى النبى ﷺ وأسلم بدلا من أن يسئ إليه ، ثم أظهر شدته للإسلام كما كان أظهر شدته للكفر ، وعز المسلمون بإسلامه ، ورافق عمر بن الخطاب الرسول ﷺ في جميع غزواته ، وكان الرسول ﷺ يستظهر برأيه في كثير من الأمور وأبدى ثقته به كثيرًا ، وهو الذى كان رشح أبا بكر لخلافة الرسول ﷺ بعد وفاته ثم اختير لخلافته من بعده .

وكان من خصائص خلافة عمر أنه نظم الحكومة و دون الدواوين و وسع دولة الإسلام بالفتوح ، وكان جريئًا في الحق ، حكيمًا قويًا عادلاً ، وقع الجدب في زمن خلافته فكان يجتزئ بطعام وقت واحد كل يوم لم تكن ترضى نفسه أن يأكل هو و يجوع الناس ، وكان شديد الزهد في شأن نفسه ، شديد

التنفيذ للحق ، شديد المنع للباطل ، قتله مجوسي اسمه أبو لؤلؤ سخطا على حكم حكم به خلاف ما كان يريد ، فحرم الأمة الإسلامية بذلك ثاني أعظم رجال التاريخ الإسلامي ، ولقد اعترف المستشرقون وعلماء الكفار أيضا بعظمة عمر بن الخطاب ﷺ وكان يرى إلى الحقائق وأمور الناس بالإخلاص والتضحية ، ويعالج الأمور بحكمة بالغة ، ولقب بالفاروق لأنه كان فارقًا بين الإسلام والكفر ، وكان خطيبًا وأديبًا يدل على ذلك خطبه وعهوده .

نموذج لخطبتـــه :

قال طلحة بن معدان : خطبنا عمر بن الخطاب ﷺ قال : أيها الناس إنه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية الله، وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث : أن يؤخذ بالحق ، ويعطى في الحق ، ويمنع من الباطل ، وإنما أنا ومالكم كولي اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا ويتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق .

ولكم على أيها الناس خصال ، أذكرها لكم فخذوني بها : لكم على أن لا أجتبي شيئًا من خراجكم ، ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم على إذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه ، ولكم على أن أزيد أعطياتكم وأرزاقكم - إن شاء الله - وأسد ثغوركم ، ولكم على أن لا ألقيكم في المهالك ولا أجمركم في ثغوركم .

وقد اقترب منكم زمان قليل الأمناء كثير القراء ، قليل الفقهاء كثير الأمل يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب ، ألا كل من أدرك ذلك منكم فليتق الله ربه وليبصر .

وله نموذج رائع في العقود والعهود سنذكره في محله .

علي بن أبي طالب ﷺ

سيرتــه وأخلاقــه :

ولد علي بن أبي طالب عام ١٣ ق هـ (٦٠٠م) استخصه رسول الله ﷺ بنفسه ليخفف بذلك عن عمه أبي طالب ، واستنبى رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ابن عشر سنين فآمن به فكان أول ولد دخل في الإسلام ، وأصبح على مكينًا عند الرسول ﷺ وكان يعتمد عليه في أمور كثيرة ، و زوجه فاطمة رضى الله عنها ابنته ، ففى يوم هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة خلفه في مكة ، ليرد الودائع التى كان عنده لأهل مكة .

واستخلف علي بن أبي طالب ﷺ بعد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ وظهرت خلافات سياسية بين المسلمين في أعقاب عهد عثمان ﷺ وقويت واستفحلت في زمن علي بن أبي طالب ﷺ فمر من خلال فتن شديدة و وقعت مناقشات وحروب بينه وبين معارضيه ، منها حرب الجمل و قد وقعت بينه وبين معارضيه تحت إمرة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، ومنها حرب صفين وقعت بينه وبين معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما إلى أن اغتاله رجل خارجي في ١٧/ رمضان سنة ٤٠ هـ واختار المسلمون ابنه الأكبر خليفة له من بعده ، ثم تنازل الحسن بن علي رضى الله عنهما عن حقه في الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ، فتم الأمر لمعاوية بن أبي سفيان وأسرته

الأموية وتركت الخلافات المذكورة آثارًا في نفوس المسلمين و أذهانهم . وظهرت في شعر عدد من شعراء العهد الأموى .

كان على بن أبى طالب ﷺ خطيبًا بليغًا وشاعرًا و حكيمًا . وكاتب رسائل، ورسائله تعد من أقوى وأبلغ الرسائل . وله ديوان شعر ولكن كثيرًا منه لا يمكن الجزم بصحة انتسابه إليه . وجمع خطبه ورسائله وكلماته أحد أدباء العصر العباسى وهو الشريف الرضى . في كتاب سماه " نهج البلاغة " . ويرى أهل العلم أن أكثر ما في هذا الكتاب غير صحيح النسبة إلى سيدنا على ابن أبى طالب .

وخطب على بن أبى طالب قصار في الأكثر ، موجزة ، قصيرة الجمل، متينة التركيب ، جامعة لأوجه البلاغة ، واضحة المقاصد ، تكثر فيها الكلم الجوامع .

أما الحكم التى تتخلل خطب سيدنا على فهى بارعة جدًا.

ومن خطب على (كرم الله وجهه) وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال : نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أى الأمرين أرشد . فصفق إحدى يديه على الأخرى ثم قال :

" هذا جزاء من ترك العقدة . أما والله لو أنى حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيرًا، فان استقمتم هديتكم . وإن اعوججتم قومتكم . وإن أبيتم تداركتكم لكانت الوثقى . ولكن بمن وإلى من ؟ أريد أن أداوى بكم وأنتم دائى كناقش الشوكة بالشوكة وهو يعلم أن ضلعها معها . اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوى . وكلّت النزعة بأشطان الركى . أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه . وقرأوا القرآن فأحكموه وهيجوا إلى

القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها ، وسلوا السيوف من أغمادها ، وأحدوا بأطراف الأرض زحفًازحفًا و صفًا صفًا بعض هلك وبعض نجا ، لا يبشرن بالأحياء ، ولا يعزون بالموتى ، مره العيون من البكاء ، خمص البطون من الصيام ، ذبل الشفاء من الدعاء ، صفر الألوان من السهر ، على وجوههم غبرة الخاشعين .

أولئك إخوانى الذاهبون ، فحق لنا أن نظمأ إليهم ونعض الأيدى على فراقهم ".

الكتـــــابة

الرسائل والعهود والعقود :

كان العرب قد يلجئون إلى أن يرسلوا كتبًا أو يعقدوا عقودًا فكانوا يحتاجون لهذا الغرض إلى أن يخطوا ويكتبوا ، وكانت الكتابة في العهد الجاهلى عملا نادرًا لم يكن يحسنها إلا رجال يعدون على الأنامل ، وهم ممن زاروا الأقطار المتمدنة وتمكنوا من الخط والكتابة ، فكان من هؤلاء من يكتب لغيره من أصحاب الحاجة ، فقد استكتب الرسول ﷺ عقودا ورسائل ، واستكتب القرآن الكريم ، وكان له كتاب للوحى يكتبونه بأمره ، وحث الرسول عليه السلام على تعلم الكتابة وجعل فدية أسارى بدر أن يعلموا المسلمين الكتابة .

وكتب الخلفاء الراشدون ، ونشأت رسائل لعدد من أعلام ذلك العهد

وبخاصة منهم على بن أبى طالب ﷺ ، فقد أثرت عنه رسائل بليغة ، ومن خصائص أسلوب الرسائل في هذا العهد الفكرة الواضحة ، والكلمات المؤثرة وروعة التعبير .

وهذه رسالة لسيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه [1] تشير إلى بلاغة أسلوبه وإلى أسلوب الرسائل في عهده ، وهى رسالة أرسلها سيدنا على ابن أبى طالب إلى أنصاره أهل الكوفة في أمر سيدنا عثمان بن عفان الخليفة الثالث .

" من عبدالله على أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة جبهة الأنصار وسنام العرب ".

أما بعد فإنى أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه ، إن الناس طعنوا عليه فكنت رجلا من المهاجرين أكثر استعتابه وأقل عتابه ، وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف ، وأرفق حدائهما العنيف ، وكان من عائشة فيه فلتة غضب ، فأتيح له قوم فقتلوه ، وبايعنى الناس غير مستكرهين ولا مجبرين ، بل طائعين مخيرين .

واعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها ، وجاشت (جيش) المرجل وقامت الفتنة على القطب ، فأسرعوا إلى أميركم ، وبادروا جهاد عدوكم ، إن شاء الله ".

وهذا كلام من موضع آخر ، اقتبسناه من رسالة له إلى أحد أمراء جيشه ينصحه فيها بالزهد في الدنيا ويصف له نظرة نفسه في الدنيا ، وهو كلام تتجلى فيه بلاغة أسلوبه ونظرته في الحياة .

---

[1] سبق ذكر نبذة حياته في مادة الخطابة .

" وأيم الله - يمينًا أستثنى فيها بمشيئة الله - لأروضن نفسى رياضة تهش معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعومًا ، وتقنع بالملح مأدوما ، ولأدعن مقلتى كعين ماء نضب معينها ، مستفرغة دموعها ، أتمتلئ السائمة من رعيها فتبرك ؟ وتشبع الربيضة من عشبها فتربض؟ ويأكل على من زاده فيهجع ؟ قرت إذاً عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية .

طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها ، وعركت بجنبها بؤسها ، وهجرت في الليل غمضها حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها وتوسدت كفها ، في معشر أسهر عُيونهم خوف معادهم ، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم ، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم ، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم ﴿ أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ فاتق الله يا ابن حنيف ولتكفك أقراصك ، ليكون من النار خلاصك ".

وهذا عهد لسيدنا عمر بن الخطاب - سبق ذكر نبذة حياته في مادة الخطابة - أرسله إلى عبدالله بن قيس .

" بسم الله الرحمن الرحيم : من عبدالله عمرأمير المؤمنين إلى عبدالله ابن قيس سلام عليك ، أما بعد ! فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يخاف ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرم حلالا أو أحل حرامًا ، ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع عنه، فإن الحق قديم ومراجعة الحق

خير من التمادى في الباطل . الفهم . الفهم عند ما تلجلج في صدرك مما ليس يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبى ﷺ . اعرف الأمثال والأشباه . وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها إلى الله . وأشبهها بالحق فيما ترى . واجعل للمدعى حقًا غائبًا أو بينة أمدًا ينتهى إليه . فان أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر .

الروايـــــة :

احتاج صحابة الرسول ﷺ أن يسجلوا أقوال الرسول ﷺ وأحواله ليأتسى به من يأتى بعدهم . فنشأ بذلك أدب بالنثر فيه وضوح وبيان وصدق القول ووصف بليغ . وسمى بالحديث والرواية . واتسع بذلك في هذا العهد النثر الأدبى . وظهر فيه اتباع لما اقتبسه المسلمون من وضوح العبارة وسلاستها في القرآن وأقوال الرسول ﷺ . ولقد تحدث بأحوال الرسول ﷺ وأقواله عدد من الصحابة رضى الله عنهم . نعرض هنا نموذجين أحدهما لأم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر زوجة الرسول عليه السلام الأثيرة لديه وثانيهما لحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما .

روت عائشة زوج النبى ﷺ [1] فقالت : لم أعقل أبوى قط إلا وهما

هى عائشة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ الحبيبة إليه تكنى بأم عبدالله . كانت بنت خليفة رسول الله ﷺ أبى بكر الصديق . ومن أكبر فقهاء الصحابة . وقد روت بكثير من أحاديث رسول الله ﷺ . فقد روت من الأحاديث ما تربو على مأتين وألف حديث . وكان فقهاء أصحاب رسول الله ﷺ يرجعون إليها . فقد تفقه بها جماعة . بنى بها النبى ﷺ في شوال بعد وقعة بدر . نزلت الآية في تبرئتها . وعاشت خمسًا وستين سنة . قال عروة : ما رأيت أحدًا من الناس أعلم بالقرآن

يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفى النهار بكرة وعشية ، فلما ابتلى المسلمون خرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة- وهو سيد القارة - فقال أين تريد أبا بكر ؟ فقال أبو بكر ، أخرجنى قومى فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربى ، قال ابن الدغنة فان مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، إنك تكسب المعدم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك ، فرجع وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلا يكسب المعدم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق ؟ فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لابن الدغنة مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن به فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر فلبث بذلك يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره .

ثم بدا لأبى بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره وكان يصلى فيه ، ويقرأ القرآن فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناءهم ، وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاءًا لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدًا

-ولا بفريضة ولابحلال وحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا النسب من عائشة رضى الله عنها ، توفيت في سنة ثمان وخمسين ، (تذكرة الحفاظ ، والإصابة والأعلام).

بفناء داره فأعلن بالصلاة والقراءة فيه وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه . فان أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرد إليك ذمتك فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان .

قالت عائشة فأتى ابن الدغنة إلى أبى بكر فقال قد علمت الذى عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترجع إلى ذمتى . فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت في رجل عقدت له . فقال أبو بكر فإنى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله .

والنبى ﷺ يومئذ بمكة فقال النبى ﷺ للمسلمين إنى أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان فهاجر من هاجر قبل المدينة ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة ، وتجهز أبو بكر قبل المدينة ، فقال رسول الله ﷺ على رسلك ، فإنى أرجو أن يؤذن لى فقال أبو بكر وهل ترجو ذلك بأبى أنت ؟ قال نعم فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر - وهو الخبط - أربعة أشهر ".

وهذه رواية الحسن بن على بن أبى طالب [1] وصف فيها

هو الحسن بن على بن أبى طالب بن عبدالمطلب جد رسول الله ﷺ وكان ابن بنته فاطمة رضى الله عنها وريحانته وكان يكنى بأبى محمد . بويع بالخلافة في المدينة المنورة بعد وفاة والده على بن أبى طالب الخليفة الرابع ثم تنازل عن الحكم لمعاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنهما طلبا لإزالة الفرقة بين المسلمين ومنعا بسفك دماء المسلمين .

ولد في نصف شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة وقيل سنة أربع وقيل غير ذلك . روى عن النبى ﷺ أحاديث حفظها عنه . قال رسول الله ﷺ عنه وعن أخيه=

رسول الله ﷺ فقال :

" لم يكن فاحشًا متفحشًا ولا صخابًا في الأسواق ، ولا يجزى السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح ، ما ضرب بيده شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا ضرب خادمًا ولا امرأة ، ما رأيته منتصرًا من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شئ ، فاذا انتهك من محارم الله تعالى كان أشدهم غضبًا ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسر هما ،(و إذا دخل بيته) كان بشرًا من البشر يغسل ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه .

كان يخزن لسانه إلا فيما يعنيه ، ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى على أحد منهم بشره ولا خلقه ، ويتفقد أصحابه ويسأل عما في الناس، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، ولا يغفل مخافة أن يغفلوا ويملوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مؤاساة ومؤازرة ، لايقوم ولا يجلس إلا على ذكر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، يعطى كل جلسائه بنصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه ، من جالسه أو فاوضه في حاجة صابره

=الحسين بن على ﷺ هذان ابناى وابنا بنتى اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما . =

وكان يشبه رسول الله ﷺ في الأعلى من جسمه ، وقال عنه رسول الله ﷺ إن ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ، توفى سنة خمسين وقيل في إحدى وخمسين من الهجرة (الإصابة وغيره من الكتب).

حتى يكون هو المنصرف ،ومن سأله حاجته لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق سواءًا ، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبن فيه الحرم ، ولا تنثى فلتاته ، متعادلين يتفاضلون فيه بالتقوى، متواضعين يو قرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير و يؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب ".

الباب الثالث

الفصل الأول

الفصل الأول

الشعر في صدر الإسلام

خف إقبال الناس على الشعر عند ما انتشر الإسلام فيهم بتأثير مقتضيات الحياة الجديدة التى جاءهم بها الإسلام ، فقد شغلتهم شؤونهم وهمومهم وأفكارهم الجديدة ، وتغير بها مجرى سلوكهم وحياتهم ، فلم يكن يسعهم أن يشتغلوا بالشعر، بمثلما اشتغلوا به في العهد الجاهلى .

ثم كان من أسباب ذلك أن القرآن الكريم ذكر الشعراء بالنعى على ما كانوا يقومون به بشعرهم من الفساد والإفساد ، فقال : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرًا وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾.

ثم كان من تأثير نزول القرآن الكريم في بلاغة معجزة ، وبأسلوب رائع معجب ، أن كشف به بريق الشعر الخلاب ، ووجد المسلمون في بيان القرآن معرفة وهداية وعذوبة للتعبير ، وبجنب ذلك كله عظمت حاجة الحياة الجديدة في هذا العهد إلى الخطابة واشتد اعتمادهم عليها .

فهذا كله كان مما جعل إقبال الناس على الشعر قليلا ولكنهم لم يتركوه بتاتًا ، بل لجاؤا إليه كلما مست حاجتهم إليه بتحفظ واحتياط، وفي الحدود التى رسمها لهم القرآن الكريم، كما ظهر في شعر الصحابة رضى الله عنهم .

ولقد سمع المسلمون أن الرسول ﷺ نعى على الإقذاع والإفحاش وإثارة الأحقاد بالهجاء بقوله :" لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا ثم يريه خير له من أن يمتلئ شعرًا " غير أنهم سمعوا أيضًا أن الرسول - ﷺ - استنشد الشعر واستحسنه وتأثر به ، فقد استنشد شعر أمية بن أبى الصلت واستزاده ، وقال: " آمن لسانه وكفر قلبه " وسمع شعر قتيلة بنت الحارث التى قالته في شأن قتل أخيها النضر بن الحارث الذى ناوأ الإسلام وهجا رسول الله - ﷺ - فأهدر دمه ، ولما سمع شعر أخته فيه تأثر به وقال : لو سمعته قبل قتله لصفحت عنه ، وقبل شعر كعب بن زهير ، وخلع عليه بردته الشريفة ، ولقد طلب الرسول - ﷺ - من شعراء صحابته استخدام الشعر للذب عن الإسلام وقال : إنه أشد عليهم من النبل .

فبذلك كله عرف المسلمون نظرة الإسلام إلى الشعر ، وهى استحسان صالحه و جواز قرضه وتجنب قبيحه ، فواصل الصحابة قول الشعر وإنشاده .

ومع ذلك لم تكن روعة الشعر في صدر الإسلام أقل منها في العهد الجاهلى ، فإن الذين قرضوا الشعر في الجاهلية وقرضوه في الإسلام فاضت قريحتهم بمثل القوة والإبداع بحسب الموضوعات والخواطر التى طرقوها ،ولم تخف روعة كلامهم في عهدهم الإسلامي إلا بقدر انصرافهم عن المعانى الخليعة وإجتنابهم اطلاق القول في المبالغات ، وتصوير المعانى في أشكال مناقضة . لأن الإسلام أضاق مجالهم في هذا الجانب .

ولكن ضيق مجال عملهم في هذا الجانب لم يغلل من موضوعاتهم تغليلا كبيرًا لأنه أبقى لهم مع ذلك جوانب صالحة وكثيرة كما بقيت لهم سائر الموضوعات، مادام فيها الالتزام ، مثل الأدب والحكمة والوصف والحماسة

والفخر والمدح والرثاء وحتى الهجاء إذا كان في صالح الحق والإسلام ، وقد نشأت أغراض جديدة في مجال الذب عن الدين الإسلامي والحب لنبيه الكريم ﷺ وظهور أثر الأخوة الإسلامية في عواطفهم ومشاعرهم ، أما الجهات التى طهر فيها ابتكارهم وتفوقهم على ماضيهم هى اختيارهم للموضوعات الشعرية بأسلوب يزدان بصدق العاطفة ورزانة المعنى ودقة الأداء وجمال التعبير .

وقد نهجوا لمدح الرسول -ص- منهجًا يجمع بين دقة الغزل وقوة المدح وصدق الوصف ، حتى صار مثل هذا المدح فيما بعد ، غرضًا شعريًا بعينه سمى في اللغة العربية بالنبوية وبلغات إسلامية أخرى بالنعت .

وتهذب شعرهم الغزلى فغلب عليه النسيب ، ورق فيه الشعور ، ونشأ منه فيما بعد نوع جديد عرف فيما بعد بشعر الحب العذرى، نسبة إلى بنى عذرة الذين نبغ فيهم عدد من شعراء الحب النزيه .

على كل فإن الشعر العربى في هذا العهد صار شعرًا ملتزمًا بالقيم الجديدة التى التزمها أبناء هذا العهد بتأثير الدين الإسلامي وصحبة رسوله الكريم محمد - ﷺ -.

ولكن هذا الالتزام لم يكن يمنع شعراء هذا العهد عن التعبير عن خلجات نفوسهم وخواطر قلوبهم من سرور وحزن ورضى وسخط وعتاب واستعتاب و وصف وحكمة ما دام لا يخرج من إطاره المرسوم .

لقد كان هذا العهد الأدبى عهد الرسول ﷺ وخلفاءه الراشدين عهدًا أساسيًا للأدب الإسلامي تحددت فيه حدوده وظهرت فيه نماذجه الأولية وانبثقت منها الخطوط العريضة للأدب الإسلامي ظهرت فيها نماذج نثرية وشعرية كثيرة حملت روح الفكرة الإسلامية وتأثير التربية النبوية في صورها

الأدبية المختلفة ، وحملت طابع هذا العصر المثالى الإسلامي . ولكنا نرى بجنب ذلك نماذج قيمة أيضا في نصوص بعض الشعراء لا تبلغ إلى درجة المثالية الإسلامية ، ولم تستوف الصورة الكاملة للروح الإسلامية الأدبية . ومثال ذلك ما نجد في نماذج شعر الحطيئة . فالمبدأ المختار إذن هو أن الأديب المسلم يعد أديبًا إسلاميًا إذا احتفظت أعماله الأدبية في غالبية نصوصه بالالتزام بالسمة الإسلامية . أما أعماله التى لم يتمكن فيها من الالتزام بهذه السمة فلا تعد إسلامية ولكن صاحبها يعد إسلاميا لكون غالبية نصوصه صافية وفقًا للنظرة الإسلامية .

فأدباء العهد الأول للإسلام هم إسلاميون وإن تخللت في نصوص بعضهم جوانب غير إسلامية أو اشتط بعض نماذج الانتاج الأدبى لهذا العهد عن الطبيعة الإسلامية للأدب ، وأكثر ما وقع هذا الاشتطاط في المجال الشعرى أما في المجال النثرى فهو نادر جدًا أو غير واقع أصلا .

وذلك لأن أمر الشعر في هذا العهد اختلف في نشأته وتكوينه عن نثره الفنى فقد كان أكثر اتصال النثر الفنى في هذا العهد واستفادته هو بالمصدرين الأولين للإسلام كتاب الله وحديث رسوله ﷺ . أما الشعر فقد استمد من الشعر الجاهلى جانبًا من قوته ومنهجه . بل إنها كانت نشأة شعراء هذا العصر على مناهج الشعر الجاهلى وطبيعته ولم يكن مستغربًا أن تبقى لمساته في شعرهم .

على كل فإن استعراض النصوص الشعرية لهذا العهد ليدل على انقسامها إلى صنفين . صنف للنصوص الملتزمة التزامًا واضحًا بالإسلام . ففيها النزاهة والاحتياط . وصنف للنصوص التى ضعف خضوعها للصبغة

الإسلامية الكاملة واشتط بعضها عن الخط الصحيح للإسلام ، إما لأن الأشخاص الذين تأخر دخولهم في الإسلام لم يتلقوا التربية النبوية بصورة واسعة ، وإما لبعد أصحابها من مكان صحبة الرسول ﷺ وبيئته الإسلامية المثالية ، وإما لأن عوامل ومؤثرات عاطفية خاصة أثرت على نفوس عدد من أصحابها فقصروا في الاحتفاظ بالمثالية ، ولذلك كله نجد أمثلة للنماذج لم تخضع للسمة الإسلامية بل حادت عن الخط الإسلامي الرزين .

شعراء هذا العهد :

ويمكن أن نقسم شعراء هذا العصر إلى ثلاثة أقسام : قسم قام شعراؤه بمؤازرة الدين الجديد والذب عن رسول الله - ﷺ -واشتهر فيهم حسان بن ثابت الأنصارى وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة وكلهم من الأنصار ، وذلك أمر يدل على أن نصرة الأنصار لله ولرسوله لم تقتصر في الإطار المادى وحده ، بل تجاوزت إلى اختيار الوسيلة الشعرية كذلك .

وقسم آخر هو للشعراء الذين زهدوا في قول الشعر بعد إسلامهم أو أقلوا منه إقلالا وهم مثل لبيد بن ربيعة ، فقد زهد في قول الشعر زهادة كبيرة ، وكعب بن زهير ، فقد ساهم بقصيدة له رائعة في مدح الرسول - ﷺ - وصحابته ثم زهد بعدها في قول الشعر ، ومثل عبدالله بن الزبعرى القرشى ، وحصين بن حمام المرى، وأبو خراش الهذلى ، والعباس بن مرداس السلمى وعمرو بن معديكرب الزبيدى وغيرهم ، أو قصروا في حدود خاصة أو موضوعات معينة مثل الأغلب العجلى الراجز و أبو محجن الثقفى ومتمم بن نويرة التميمى ، والخنساء ، أو عروة بن حزام وربيعة بن مقروم و الزبرقان بن بدر

وأبو ذؤيب الهذلي . وقسم للشعراء الذين لم يتمكنوا من التزام كبير . وهم مثل حميد بن ثور الهلالي والمخبل السعدي وقيس بن عمر النجاشي . وأبو الطمحان القيسي والشاعر المعروف الحطيئة . فقد كان شاعرًا كبيرًا ولكنه نشأ في بيئة بعيدة عن التأثير الإسلامي فنشأ على سوء الخلق . واستغل الهجاء لأغراضه . فاشتمل شعره على الإحسان والإساءة كليهما . ومن شعراء هذا العهد النابغة الجعدي أجاد في الجاهلية و في الإسلام كليهما . و وردت في كلامه ألفاظ إسلامية ومعان دينية كذلك .

نماذج شعر هذا العهد :

في الحماسة والفخر والمديح :

قال عبدالله بن رواحة :

(وهو عبدالله بن رواحة شاعر أنصاري من قبيلة الخزرج . شهد بيعة العقبة الثانية . واستخدم شعره في الذب عن الإسلام . وهو من الشعراء والرجاز المحسنين المجيدين . توفي سنة ٨هـ في موقعة مؤتة مجاهدًا شهيدًا).

جلبنا الخيل من أجا وفرع ... تغر من الحشيش لها العكوم

حذوناها من الصوان سبتا ... أذل كأن صفحته أديم

أقامت ليلتين على معان ... فأعقب بعد فترتها جموم

فرحنا والجياد مسومات ... تنفس في مناخرها السموم

فلا وأبي مآب لنأتينها ... وإن كانت بها عرب و روم

فعبأنا أعنتها فجاءت ... عوابس والغبار لها بريم

بـذى لجب كأن البيض فيه | إذا بـرزت قوانسـها النجـوم
فراضيـــة المعيشة طلقتها | أسنتهـــا فتنكـــح أو تئيم

وقال ربيعة بن مقروم في الفخر:

(وهـو ربيعـة بـن مقـروم بـن قيـس بـن مـالك بـن بكـر ، أسـلم وحسـن إسـلامه ، ثـم شـهد القادسـية ، و عـاش في الإسـلام طويـلاً ، وهـو شـاعر مجيـد غريب اللفظ، متين السبك ، ومن فنونه المدح والفخر والهجاء ، وغزله من فاخر الشعر القديم).

أخوك أخوك مـن تدنو وترجو | مودتـه وإن دعـى اسـتجابا
إذا حاربت حارب من تعادى | وزاد سلاحـــه منـك اقترابـا
وكنت إذا قربنى جـاذبتـــه | حبالى مـات أو تبـع الجذابـا
فإن أهلك فذى حنـق لظـــاه | على تكـاد تلتهـب التهابـــا
خضبت بدلوه حتى تحســى | ذنوب الشر ملائ أو القرابـا
بمثلى فاشهد النـجوى وعالن | بـى الأعداء والقـوم الغضابـا
فإن الموعدى يـرون دونـــى | أسـود خفيـة الغلـب الرقابـا
كأن على سواعـدهن ورســا | علالون الأشاجع أو خضـابا

وله أيضًا :

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها | بسليم أوظفة القوائم هيكل
ودعوا نزال ، فكنت أول نـــازل | وعـــلام أركبـه إذا لم أنـــزل
ولقد جمعت المال من جمع امرئ | ورفعت نفسى عن كريم المأكل
ودخلت أبنية الملـوك عـــليهم | ولشر قول المرء مـا لم يفعـل
ورب ذى حنـــــق على كأنـما | تغلى عداوة صدره كـالمرجل

أرجيته عنى فأبصـــــر قصده وكويته فوق النواظر من عل

ولقد أصبت من المعيشة لينهـا وأصابنى منه الزمـان بكلكل

ولقد أتت مائة على أعدهـــا حولا فحولا إن بلاها مبتل

فإذا الشباب كمبذل أنضبـته والدهر يبلى كل جدة مبذل

وقال الشماخ:

(وهو معقل بن ضرار من بنى سعد بن ذبيان ، شهد القادسية ومعارك إسلامية أخرى مسلمًا مجاهدًا ، توفى في خلافة عثمان - ﷺ - وهو شاعر مشهور، وله مديح بارع ورثاء و فخر و حماسة وغزل وحكمة).

وأشعث قد قد السفار قميصه وجر شواء بالعصا غير منضج

دعوت إلى ما نابنى فأجـابنى كريم من الفتيان غير مزلج

فتى يملأ الشيزى ويروى سنانه ويضرب في رأس الكمى المدجج

فتى ليس براض بأدنى معيشة ولا في بيوت الحى بـــالمتولج

وقالت صفية بنت عبدالمطلب في الفخر:

(وهى عمة رسول الله ﷺ وأخت حمزة وأسلمت وذبت عن الإسلام).

ألا مـــــن مبلغ عنى قريشًا ففيم الأمر فينـا والأمـار

لنا السلف المقدم قد علمتم ولم توقد لنا بالغدر نار

وكل مناقب الخيرات فينـا وبعض الأمر منقصة وعار

وقال أبو محجن الثقفى:

(وهو عبدالله بن حبيب بن عمرو من بنى ثقيف ، كان فارسًا معدودًا في أولى البأس والشدة ، أسلم بعد فتح الطائف وظهرت شجاعته في

موقعة القادسية، ونال ثناءًا وتقديرًا من أمير الجيش سعد بن أبى وقاص وهو شاعر معروف.

لا تسأل الناس عن مال وكثرته ... وسائل القوم ما حزمى وما خلقى

القوم أعلم أنى من سـراتهم ... إذا تطيش يد الرعد يدة الغرق

فقد أركب الهول مسد ولا عساكره ... وأكتم السر فيه ضربة العنق

وفي هذا الباب قصائد أخرى أيضاً لعدد من أعلام شعراء هذا العهد. وسيأتى ذكرها مع تراجم شعراءها مثل حسان بن ثابت الأنصارى و كعب ابن مالك وحصين بن الحمام والحطيئة والنابغة الجعدى.

الاعتذار والاستعتاب والعتاب :

قال عبدالله بن الزبعرى حين أسلم :

(وهو من بنى سهم من قريش كان شديدًا على المسلمين، وكان شعره في الرد على الإسلام والمسلمين، ولما فتحت مكة هرب، ثم عاد وأسلم واعتذر، وهو من شعراء قريش المعدودين، وأبرع شعراء مكة، وشعره في المديح والهجاء وبعض الحكمة).

منع الرقاد بلابـل وهمـوم ... والليل معتلـج الـرواق بهيـم

يا خير من حملت أوصـالها ... عيراتـة سـرح اليديـن غشـوم

إنى لمعتذر إليك من الـذى ... أسديت إذ أنا في الضلال أهيم

أيام تأمرنى بأغوى خطـة ... سـهم و تـأمرنى بهـا مخـزوم

و أمد أسباب الردى ويقودنى ... أمـر الغـواة وأمرهـم مشـئوم

فاليوم آمن بالنبى محمـد ... قلبـى ومخطـئ هـذه محـروم

مضت العداوة وانقضت أسبابها ودعت أواصر بيننا وحلوم

فاغفر فدى لك والداى كلاهما زللى . فأنت راحم مرحوم

وعليك من علم المليك علامة نور أعز و خاتم مختوم

أعطاك بعد محبة برهانه شرفًا وبرهان الإله عظيم

ولقد شهدت بأن دينك صادق حق وأنك في العباد جسيم

والله يشهد أن أحمد مصطفى مستقبل في الصالحين كريم

قرم علا بنيانه من هاشم فرع تمكن في الذرى وأروم

وقال المخبل السعدى يعاتب ابنه :

(وهو أبو يزيد ربيع بن مالك بن أنف الناقة بن قريع التميمى . وعمر المخبل في الجاهلية والإسلام دهرًا طويلاً . ومات في أيام عثمان - رضى الله عنه - وهو شاعر فحل مشهور . ولكنه مقل . وشعره فصيح سهل التراكيب . وفنونه المديح والهجاء خاصة).

فإن يك غصنى أصبح اليوم ذاويا وغصنك من ماء الشباب رطيب

فإنى حنت ظهرى خطوب تتابعت فمشيتى ضعيف في الرجال دبيب

إذا قال صحبى . يا ربيع ألا ترى ؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب

ويخبرنى شيبان أن لن يعقنى تعق إذا فارقتنى و تحوب

فلا تدخلن الدهر قبرك حوبة يقوم بها يومًا عليك حسيب

وقال أبو خراش يعاتب ابنه:

(وهو أبو خراش الهذلى كان فارسًا في الجاهلية . فاتكا وعداءًا . وتأخر أبو خراش في الدخول في الإسلام . ثم أسلم . وحسن إسلامه . وأبو خراش شاعر فحل وأحد حكماء العرب . ولأبى خراش من الفنون فخر

وحماسة ومديح ورثاء وهجاء).

ألا من مبلغ عنى خراشًـــــا وقد يـأتيك بالنبـأ البعيـد

ألا فاعلم خراش بأن خيرا لها جـر بعـد هجرتـه زهيـد

فإنك زهيد وابتغاء البر بعدى كمخضوب اللبان ولا يصيد

الغزل والشباب :

وقال حميد بن ثور الهلالى :

(وهو من بنى هلال بن عامر بن صعصعة . قاتل المسلمين في معركة حنين . ثم أسلم و وفد إلى الرسول - ﷺ - وعاش إلى خلافة عثمان - رضي الله عنه - وهو شاعر مجيد جميل المعانى عذب الألفاظ . وله غزل صريح وفخر وحماسة وطرد).

فلا يبعد الله الشباب وقولنـا إذا ما صبونـا صبـوة سنتوب

ليالى أبصار الغوالى وسمعهـا إلى و إذ ريحـي لهـن جنـوب

وإذا ما يقول الناس أمر مهون علينا وإذ غصن الشبـاب رطيب

وقال ربيعة بن مقروم :

أمن آل هند عرفت الرسوما بجمران فقرًا أبت أن تريما

وقفت - أسألها - نـــاقتى وما أنا . أم ما سؤا لى الرسوما

وذكرنى العهد أيامهـــــا فهـاج التذكـر قلبًـا سـقيما

ففاضت دموعى فنهنهتهـا على لحيتى ورداتى سـجومًا

وإن تسألنى فـــإنى امرؤ آهين اللئيـم وأحبـو الكريمـا

ويحمد بذلى له معتـــــف إذا ذم مـن يعتفيـه اللئيمـا

وأجزى القروض وفاء بهـــا ببؤس بئيس و نعمى نعيمـــا

وقال حميد بن ثور الهلالى :

سلى الربع أنى يممت أم سالم وهل عادة للربع أن يتكلما

وتكلم عن الحمامة التى تغنى فقال :

عجبت لها أنى يكون غناؤهـا فصيحًا وتفغر بمنطقها فمـا

فلم أر محزونًا له مثل صوتهـا ولا عربيًا شاقه صوت أعجما

كمثلى إذا غنت، ولكن صوتها له عولة يفهم العود أرزمـــا

الحكمة والرثاء:

قال أبو خراش الهذلى في قتل عروة أخيه ونجاة خراش ابنه :

حمدت إلهى بعد عروة إذ نجا خراش، وبعض الشر أهون من بعض

فـو الله مـا أنسى قتيلا رزئته بجانب قوسى ماشت على الأرض

عـلى أنها تعفو الكلوم وإنمـا نوكل بـالأدنى وإن جـل مـا يمض

ولم أدر من ألقى عليه رداءه على أنه قد سل من ماجد محض

وقال الطمحان القينى عن الموت :

(وهو أبو الطمحان حنظلة بن الشرقى من بنى القين من قضاعة . وكان فارسًا صعلوكًا فاسد الدين في الجاهلية والإسلام . وهو شاعر مطبوع فصيح الألفاظ متين التركيب بدوى النفس . وفنونه المدح والحماسة وشئ من الحكمة).

ألا عللانى قبـــــل نوح النوائح وقبل ارتقاء النفس فوق الجوانح

وقبل غد. يـــــــا لهف على غد إذا راح أصحـابى ولسـت برائـح

إذا راح أصحابي تفيض دموعهم وغودرت في لحد على صفائحي

يقولون: هـل أصلحتم لأخيكم وما اللحد في الأرض الفضاء بصالح

وقال الشماخ يرثي عمر بن الخطاب:

جزى الله خيرًا من أمير وبـاركت يد الله في ذاك الأديم الممزق

فمن يسع أو يركب جناحي نعامة ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق

قضيت أمورا ثم غادرت بعدهـا بوائـح في أكمامهـا لم تفتـق

أبعد قتيل بالمدينـة أظلمت له الأرض تهتز العضاه بأسوق

تظل الحصان البكر يلقى حنينهـا نثـا خبر فـوق المطـى معلـق

وما كنت أخشى أن تكون وفـاته بكفي سبتني أزرق العين مطرق

وقال متمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك:

(متمم بن نويرة من بني تميم، كان قصيرًا أعور، ولكنه فارس معدود، دخل في الإسلام، وكان هو وأخوه عاملين للرسول - ﷺ - على صدقات قومهما، ارتد قوم متمم على إثر وفاة الرسول - ﷺ - فغزاهم خالد بن الوليد، وقتل مالكا ظانًا أنه لا يزال مرتدًا، فرثاه متمم رثاءًا حارًا، واشتهر بشعر الرثاء، مات في ٣٠هـ).

أبى الصبر آيات أراهـا وإننى أرى كل حبل بعد حبلك أقطعا

وإنى متى ما أدع باسمك لا تجب وكنت حريًا أن تجيب وتسمعا

سقى الله أرضًا حلها قبر مالـك ذهاب الغوادي المدجنات فأمرعا

فوالله ما أسقى البلاد لحبهـا ولكننى أسقى الحبيب المودعا

نحيته منى وإن كان ناتيـا وأمسى ترابا فوقه الأرض بلقعا

فإن تكن الأيـام فرقن بيننا لقد بان محمودًا آخى يوم ودعا

وعشنا بخير في الحيـــــاة وقبلنا أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا

وكنا كندمانى جذيمـــة حقبـة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

وللخنساء وأبى ذؤيب الهذلى قصائد رقيقة رائعة أيضًا في الرثاء ، وسيأتى نماذجهما في ترجمتهما .

الفصل الثانى

أعلام الشعراء وكلامهم

من شعراء الإسلام :

عبدالله بن رواحة :

هو عبدالله بن رواحة بن امرئ القيس من بنى مالك بن ثعلبة بن كعب ابن الخزرج ، وأمه كبشة بنت واقد بن عمرو بن الاطنابة من الخزرج أيضًا وكان عظيم القدر في الجاهلية .

أسلم وشهد بيعة العقبة الثانية، وكان أحد النقباء الإثنى عشر ، ثم عمل على نشر الإسلام في المدينة ، فأصبح عظيم القدر أثيرًا عند الرسول ﷺ ، ولقد زاد في مكانته أنه كان يخط فاتخذه الرسول ﷺ كاتبًا ، وكذلك كان شاعرًا يرد على المشركين هجاءهم لرسول الله ﷺ وتهجمهم على الإسلام.

كان من الشعراء والرجاز المحسنين المجيدين ، وهو من طبقة حسان ابن ثابت وكعب بن مالك ، وقد كان في الجاهلية يناقض قيس بن الخطيم ، أما في الإسلام فكان يمدح الرسول ﷺ ويرد على شعراء المشركين .

توفي سنة ٨ هجرية في موقعة مؤتة بأدنى البلقاء من أرض الشام استشهد بعد معركة شديدة .

نماذج من كلامه :

قال في الحماسة وفيه رثاء :

بكت عيني وحق لها بكاهـــا ... وما يغني البكاء ولا العويل
على أسد الإله غداة قـــالوا ... أحمزة ذاكم الرجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعًـــا ... هناك وقد أصيب به الرسول
ألا من مبلـــغ عني لؤيـــًا ... فبعد اليوم دائلة تـدول
وقبل اليوم مـا عرفوا وذاقوا ... وقائعنا بها يشفى الغليل
نسيتم ضربنـــا بقليب بدر ... غداة أتاكم الموت العجيل
غداة ثوى أبوجهل صـريعًـــا ... عليه الطير حائمة تجول
وعتبة وابنـــه خـرا جميعًا ... وشيبة عضه السيف الصقيل
وتركنا أميـــــــة مجلعبا ... وفي حيزومـــه لـدن نبيـل
وهام بني ربيعة ســائلوها ... ففي أسيافنا منها فلول
ألا يا هند فـــابكي لا تملي ... فأنت الواله العبرى الهبول
ألا يـا هند لا تبدي شماتا ... بحمـــــــزة إن عزكم ذليل

وقال في حب الشهادة في غزوة مؤتة :

إذا أدنيتني وحملت رحلي ... مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك انعم وخـــلاك ذم ... ولا أرجع إلى أهلي ورائي
وجاء المسلمون وغـادروني ... بأرض الشام مشتهى التواء
وردك كل ذي نسب قريب ... إلى الرحمان منقطع الإخاء
هنالك لا أبالي طلع ليـــل ... ولا نخـل أسافلهـا رواء

وقال :

لكننى أسأل الرحمن مغفـــرة وضربـة ذات فـرغ تقـذف الزبـدا

أو طعنة بيدى حزان مجهـــزة بحربـة تنفـذ الأحشـاء والكبـدا

حتى يقال إذا مروا على جدثى أرشده الله من غـــاز وقد رشـــدا

وقال أيضًا :

يا نفس إلا تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت إن تفعلى فعلهمـــا هديت

كعب بن مالك الأنصارى :

هو كعب بن مالك من بنى سلمة (بفتح السين وكسر اللام)من الخزرج ولد في يثرب نحو عام ٢٥ ق هـ (٥٩٨م) وكان في نحو الخامسة والعشرين من عمره عند ما شهد بيعة العقبة مع قومه ، ودخل في الإسلام . ثم إنه شهد مع رسول الله ﷺ جميع الغزوات إلا تبوك . وذكر قصة تخلفه عن غزوة تبوك بأسلوب سهل سليس بليغ وهو نموذج جميل لنثر هذا العصر . وفي القصة جوانب ومعان إنسانية ونفسية من الإيمان والفداء ، وكان محدثًا يروى الحديث عن رسول الله ﷺ .

وعمى كعب بن مالك في آخر عمره ثم توفى بين سنة ٥٠ وسنة ٥٥ هـ (٦٧٠-٦٧٣م) وسنه في نحو السابع والسبعين، وكان من أنصار عثمان بن عفان.

كعب بن مالك من فحول الشعراء ، مكثر مجيد ، وخصوصًا في الحماسة و وصف الحرب . وله نماذج يوجد أكثرها في كتب السيرة وخاصة في السيرة النبوية لابن هشام .

نماذج من كلامه :

قال يوم خيبر وهو في الحماسة :

ونحن وردنـــــا خيبرًا وفروضه ... بكل فتى عارى الأشاجع مذود

جواد لدى الغايات لاواهن القوى ... جرئ على الأعداء في كل مشهد

عظيم رماد القـــدر في كل شتوة ... ضرب بنصل المشرفى المهند

يرى القتل مدحا إن أصاب شهادة ... من الله يرجوها وفورًا بأحمد

يذود و يحمى عن ذمـــار محمد ... ويدفع عنه باللسان وباليد

وينصره من كل أمر يريبـــــه ... يجود بنفس دون نفس محمد

يصدق بالأنباء بالغيب مخلصًا ... يريد بـــذاك الفوز والعز في غد

وله في المدح ، يمدح الذين حضروا غزوة مؤتة ويرثى الذين استشهدوا فيها .

نام العيون ودمع عينـــك يهمل ... سحًا كما وكف الطباب المخضل

في ليلة وردت على همومهـــا ... طورًا أحن وتارة أتململ

واعتـــادنى حزن فبت كأننى ... ببنات نعش والسماك موكل

وكأنما بين الجـــوانح والحشى ... مما تأوبنى شهاب مدخل

وجدًا على النفر الذين تتابعوا ... يومًا بمؤتة أسندوا لم ينقلوا

صلى الإله عليهم من فتيـــة ... وسقى عظامهم الغمام المسبل

صبروا بمؤتة للإله نفوسهـــم ... حذر الردى ومخافة أن ينكلوا

فمضوا أمام المسلمين كأنهـــم ... فنق عليهن الحديد المرفل

إذ يهتدون بجعفر ولوائـــــه ... قـــدام أولهـــم فنعـــم الأول

حتى تفرجت الصفوف وجعفر ... حيث التقى وعث الصفوف مجدل

فتغير القـمر المنير لفقـــــده ... والشمس قد كسفت وكادت تأفل

قرم علا بنيانه من هـــــاشم فرعا أشم وسؤددا مـا ينقـل

قوم بهم عصم الإله عبـــاده وعليهـم نـزل الكتـاب المـنزل

فضلوا المعاشر عزة وتكرمـــــا وتغمـدت أحلامهـم مـن يجهـل

لا يطلقون إلى السفاه حبـــائهم ويـرى خطيبهـم بحـق يفصـل

بيض الوجوه ترى بطون أكفهم تندى إذا اعتذر الزمان المحل

وبهديهم رضى الإله لخلقـــه ويجدهم نصرًا النبى المرســـل

حسان بن ثابت الأنصارى :

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن زيد مناة بن عدى من بنى مالك بن النجار ، والنجار هو تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج ، وأم حسان هى الفريعة ، بنت خالد بن حبيش من الخزرج أيضًا ، وكان أبوه ثابت وجده المنذر من أشراف قومهم والحكام بين الأوس والخزرج ، وكان جده خاصة عظيم الكرم محبًا للسلم ، لما اختلف الأوس والخزرج بعد يوم سميحة في أمر القتلى والديات ، أهدر المنذر ديات قوم الخزرج واحتمل ديات القتلى من الأوس من ماله حرصًا على السلم .

ولد حسان في يثرب نحو عام ٦٠ ق هـ(٥٦٣م) ونشأ شاعرًا يتكسب بالشعر ويتنقل بين بلاط جلق وبلاط الحيرة ، وكان إلى الغساسنة أميل ، وقد مدح من آل جفنة الغساسنة ، أولاد الحارث الأعرج (توفي ٥٣ق هـ - ٥٦٩م) وأحفاده ، واستمر الغساسنة في بر حسان ووصله بالجوائز حتى بعد أن دخل في الإسلام وأضرب عن مدحهم .

وأسن حسان كثيرًا ثم عمى في أواخر أيامه ، وتوفي سنة ٥٤هـ

(٦٧٤م) وقد زادت سنه على مائة عام .

حسان بن ثابت من فحول الشعراء، كثير الشعر جيده وهو أشعر أهل المدر.

وكان أغراض شعر حسان في الجاهلية . المدح والهجاء القبلى والشخصى . وكان منها الرثاء والخمر والحماسة . والفخر والغزل . و واصل حسان قول الشعر في الإسلام . ووقف مدحه على رسول الله ﷺ وقصر هجاءه على المشركين الذين كانوا يتعرضون للرسول وللإسلام بهجائهم . اكتسب شعر حسان في الإسلام كثيرًا من العذوبة والإخلاص . وكثرت فيه التعابير الإسلامية والاقتباس من القرآن الكريم . وحسان خليق بأن يسمى رأس المديحين . فهو الذى بدأ في المديح النبوى .

وهو من الذين أجادوا المديح في الجاهلية . و في الإسلام . نماذج من كلامه :

الحماسة والفخر :

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء

ديار من بنى الحسحاس قفر ... تعفيها الروامس والسماء

وكانت لا يزال بها أنيس ... خلال مروجها نعم وشاء

فدع هذا . ولكن من لطيف ... يؤرقنى إذا ذهب العشاء

لشعثاء التى قد تيمته ... فليس لقلبه منها شفاء

كأن سبيئة من بيت رأس ... يكون مزاجها عسل وماء

على أنيابها . أو طعم غض ... من التفاح هصره الجناء

إذا ما الأشربات ذكرن يومًا ... فهن لطيب الراح الفداء

نوليها الملامة ، إن ألمنا ... إذا ما كان مغث أو لحاء

ونشربها فتتركنا ملوكا ... وأسدا ما ينهنهنا اللقاء

عدمنا خيلنا ، إن لم تروها ... تثير النقع ، موعدها كداء

يبارين الأعنة مصعدات ... على أكتافها الأسل الظماء

تظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخمر النساء

فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء

وإلا ، فاصبروا لجلاد يوم ... يعز الله فيه من يشاء

وجبريل أمين الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء

وقال الله قد أرسلت عبدًا ... يقول الحق إن نفع البلاء

شهدت به ، فقوموا صدقوه ... فقلتم :لا نقوم ولانشاء

وقال الله: قد يسرت جندا ... هم الأنصار عرضتها اللقاء

لنا في كل يوم من معد ... سباب ، أو قتال ، أو هجاء

فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوف نخب هواء

بأن سيوفنا تركتك عبدًا ... وعبد الدار سادتها الإماء

هجوت محمدًا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

أتهجوه ، ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

هجوت مباركاً، برًا، حنيفًا ... أمين الله ، شيمته الوفاء

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه ، وينصره سواء

فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

لسانى صـــارم لا عيب فيه ويحرى لا تكدره الـــــــــدلاء

له في رثاء الرسول ﷺ.

بطيبـــــــة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تمحى الآيـــات من دار حرمة بهامنبرالهادى الذى كـــان يصعـــد
و واضح آثار وبـــــــاقي معالم وربع لـه فيـه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينـزل وسطها مـن اللّه نـور يستضاء ويوقـد
معارف لم تطمس على العهد آيها أتاها البلى فـالآى منهـا تجـدد
عرفـــت بها رسم الرسول وعهده وقبرًا بها و اراه في التراب ملحد
ظللت بهـا أبكى الرسول فأسعدت عيون ومثلاها من الجفن تسعد
يذكرن آلاء الـــــرسول وما أرى لها محصيًا نفسى فنفسى تبلد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت بلاد ثوى فيهـا الرشيد المسدد
وبورك لحد منـــك ضمن طيبا عليـه بنـاء مـن صفيـح منضـد
تهيل عليـــــه الترب أيد وأعين عليـه وقد غـارت بذلـك أسـعد
لقد غيبوا حلمًـــا وعلمًا ورحمة عشـية علـوه الـثرى لا يوسـد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم وقد وهنت منهم ظهور وأعضد
يبكون من تبكى السموات يومه ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد

وأمست بلاد الحرم وحشا بقاعها لغيبة مـا كانت من الوحى تعهد
قفاراً سوى معمورة اللحد ضافها فقيـد يبكيـه بـلاط وغرقـد
ومسجده فالموحشات لفقـــده خـلاء لـه فيـه مقـام ومقعـد
وبالجمرة الكبرى لـه ثم أوحشت ديـار وعرصـات وربـع ومولـد

فبكى رسول الله يـــا عين عبرة ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد
ومالك لا تبكين ذا النعمـة التى على الناس منها سابغ يتغمد
فجودى عليه الدموع واعـــولى لفقـد الذى لامثله الدهر يوجد

وقال في المدح:

إن الذوائب من فهر وإخوتهـــم قـد بينـوا سـنة للنـاس تتبـع
يرضى بهم كل من كانت سريرته تقوى الإله وكل الخير يصطنع
قوم إذا حاربوا ضروا عـــدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محـــدثة إن الخلائق - فاعلم - شرها البدع
إن كان في الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبـع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا
إن سابقوا الناس يوما فاز سبقهم أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا
أعفة ذكرت في الوحى عفتهـم لايطبعـون ولا يرديهـم طمـع
لا يبخلون على جار بفضلهـم ولا يمسهم من مطمع طبـــع

وله في مدح الغساسنة وهو مما قاله في الجاهلية :

لله در عصـــــابة نادمتهم يومـا بجلـق في الزمـان الأول
يمشون في الحلل المضاعف نسجها مشى الجمال إلى الجمال البزل
الضاربون الكبش يبرق بيضـه ضربـا يطيـح لـه بنـان المفصـل
والخالطـــون فقيرهم بغنيهم والمنعمون على الضعيف المرمل
أولاد جفنـــة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم، المفضل
يغشون . حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبـل
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

بيض الوجوه، كريمة أحسابهم　　شم الأنوف مـن الطراز الأول

وله في الحكمة .

والمال يغشى رجالا لاطباخ لهم　　كالسيل يغشى أصول الدندن البالى

أصون عرضى بمالى لا أدنسه　　لابارك اللّه بعد العرض في المال

أحتال للمال ، إن أودى فأجمعه　　ولست للعرض إن أودى بمحتال

والفقر يزرى بأقوام ذوى حسب　　ويقتدى بلئام الأصل أنذال

(ب) من عامة المخضرمين الأعلام الحصين بن الحمام المرى.

" هو الحصين بن الحمام المرى بن ربيعة بن ساب بن حرام بن وائل ابن سهم بن ذبيان ، كان سيد سهم ومقدمهم ، وقد لقب مانع الضيم ، وكان من أوفياء العرب ، وأسلم فكان من صحابة رسول اللّه ﷺ ، ويظهر أن الحصين بن الحمام لم يعش في الإسلام طويلا فلعل وفاته كانت في مطلع خلافة الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ﷺ .

كان الحصين بن الحمام من الشعراء المقلين ، ولكنه كان من المشهورين المجيدين ، وشعره وجدانى متين ، أكثره في الفخر والحماسة وفي عتاب قومه ، وله شئ من الرثاء ، وفي شعره المتأخر معان إسلامية .

قال في الفخر والحماسة وهو من كلامه الإسلامي .

وقافية غير أنسية　　قرضت من الشعر أمثالها

شرود تلمع في الخافقين　　إذا أنشدت قيس: من قالها؟

وحيران لا يهتدى بالنهار　　من الطلع يتبع ضلالها

وداع دعا دعوة المستغيث　　فكنت كمن كان لبى لها

إذا الموت كان شجا في الحلوق　　وبادرت النفس أشغالها

صبرت ولم أك رعد يـــدة ... وللصبر في الروع أنجى لهـا
ويوم تسعر فيه الـــحروب ... لبست إلى الروع سربا لهـا
مضعفة السرد عـــاديـة ... وعضب المضارب مفصالهـا
ومطردا من رديـنيـــــة ... أزود عـــن الـورد أبطالهـــا
فلم يبق من ذلك إلا التـقى ... ونفـــس تعـــالج آجالهـــا
أمور من الله فوق السمـاء ... مقـــادير تـــنزل أنزالهـــا
أعوذ بربي من المخزيـــا ... ت يوم ترى النفس أعمالهـا
وخف الموازين بالكـافرين ... وزلزلـــت الأرض زلزالهـــا
ونادى مناد بأهل القـبور ... فهبـــوا لتـــبرز أثقالهـــا
وسعرت النار فيها العذاب ... وكان السلاسل أغلالهـــــا

وقال في عهده الجاهلي وهو في الحماسة يصف فيه يوم دارة موضوع بين سعد ابن ذبيان وبين بني سهم بن مرة .

ولمـــا رأيت الود ليس بنافعي ... وإن كان يوما ذا كواكب مظلما
صبرنا- وكان الصبر فينا سجية ... بأسيافنا يقطعن كفا ومعصما
يفلق هـــاما من رجال أعزة ... علينا . وهم كانوا أعق وأظلما
وجوه عدو. والصـــدور حديثة ... بـود. فـأودى كـل ود فأنعما
فليت أباشبل رأى كر خيلنا ... وخيلهـم بـين الستار فأظلما
عشية لا تغني الرماح مكانها ... ولا النبل إلا المشر في المصمما
لدن غدوة حتى أتى الليل ما ترى ... من الخيل إلا خارجيا مسوما
عليهن فتيان كســـاهم محرق ... وكـان إذا يكسو أجـاد وأكرما
صفائح بصرى أخلصتها قيونها ... ومطـردا مـن نسـج داود مبهما

يهزون سمرا من رماح رديـنـة إذا حركت بضت عواملها دما

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حيـاة مثل أن أتقدما

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ولست بمبتاع الحيـــاة بسبة ولا مبتغ من رهبة الموت سلما

كعب بن زهير:

نشأ كعب بن زهير في مهد الشعر فقد كان أبوه زهير بن أبى سلمى شاعرًا كبيرًا ، فمال إلى الشعر منذ سن مبكرة ، وأشرف والده على تقويم شعره وتربيته حتى رسخت فيه الملكة الشعرية ، وأتى بالجيد الرصين والرائق المعجب من الشعر ، ودخل في أبوابه المختلفة ، و أوشك أن يسامى أباه لولا غرابة في ألفاظه وتعقيد في تراكيبه وقصور في مطولاته ، وفي كل ذلك برئ أبوه.

لما ظهر الإسلام خرج هو وأخوه بجير إلى رسول الله ﷺ ، ثم بداله فتأخر هو وتقدم بجير فسمع كلام رسول الله ﷺ وأسلم فغضب كعب لإسلامه ونهاه وهجاه ، وهجا رسول الله ﷺ معه بأبيات فأهدر الرسول ﷺ دمه فخيف عليه من أن يقتل بيد أحد صحابته ، وأشفق عليه أخوه فنصحه بالإسلام والتوبة والحضور إلى الرسول ﷺ في طلب عفوه و رضاه ، فجاء كعب إلى المدينة وتوسل بأبى بكر ﷺ ودخل في الإسلام فعفا عنه الرسول ﷺ وأمنه، ومدحه كعب بلاميته المشهورة فخلع عليه الرسول ﷺ بردته الشريفة ، فما زالت البردة في أهله حتى اشتراها معاوية ﷺ بأربعين ألف درهم وتوارثها الخلفاء الأمويون ثم العباسيون ، وسميت قصيدته بقصيدة البردة وصارت مثالا لنوع من مديح الرسول ﷺ انتهج منهجه عدد من الشعراء المسلمين فيما

بعد وسميت قصائد هذا المنهج بقصائد البردة ، وخصت قصيدة كعب بن زهير بعنوان قصيدة " بانت سعاد " لأنها تبتدئ بهذا اللفظ ولعل كعبا لم يهتم بقول الشعر بعد ذلك ولم يقرض شعرًا ينقل عنه ويعرف .

ولكن قصيدته اللامية في مديح رسول الله ﷺ جعلت اسمه خالدًا .

توفى كعب بن زهير في سنة ٢٤ هجرية .

من عيون شعر قصيدته هذه التى مدح بها الرسول ﷺ يبدأ القصيدة بشعر الغزل اتباعا للطريقة المعهودة لدى شعراء عهده ويقول :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ... لا يشتكى قصر منها ولا طول

تجلو عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت ... كأنه منهل الراح معلول

شجت بذى شيم من ماء محنية ... صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

❁ ❁ ❁

أرجو وآمل أن تدنو مودتها ... وما إخال لدينا منك تنويل

أمست سعاد بأرض لايبلغها ... إلا العتاق النجيبات المراسيل

ولن يبلغها إلا عذافرة ... لها على الأين إرقال وتبغيل

من كل نضاخة الذفرى إذا عرقت ... عرضتها طامس الأعلام مجهول

❁ ❁ ❁

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول

أنبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذني بأقوال الوشـــاة ولم أذنب ولو كثرت في الأقـاويل

❁ ❁ ❁

إن الرسول لنـــور يستضاء به مهنـد مـن سيوف الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم ببطـن مكـة لمـا أسلموا زولـوا

زالـوا فما زال أنكاس ولا كشف عنـد اللقـاء ولا ميـل معـازيل

شم العرانين أبطـــال لبوسهـم من نسج داود في الهيجا سرابيل

بيض سوابغ قد شكت لها حلق كأنهـا حلـق القفعـاء مجـدول

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم قوما وليسوا مجازيعًا إذا نيلوا

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهـم ضرب إذا عرد السود التنـابيل

لا يقع الطعن إلا في نحورهـــم ومالهم عن حياض الموت تهليل

أبوذؤيب الهذلي:

هو خويلد بن خالد من بني سعد بن هذيل وكان في الجاهلية راوية لساعدة بن جواية الهذلي :

دخل أبو ذؤيب في الإسلام وحسن إسلامه، فلما ندب عثمان بن عفان المسلمين إلى الفتح في أفريقية خرج أبو ذؤيب في جيش الفتح مع خمسة من أبنائه وهلك أبناء ذؤيب الخمسة بالطاعون في مصر فتابع هو طريقه إلى أفريقية، وشهد فتح قرطاجية .

توفي في عام ٢٨هـ على لدغة لدغته حية في مصر.

قال ابن سلام :" كان أبو ذؤيب شاعرًا فحلا لا غميزة فيه ولا وهن .... وسئل حسان : من أشعر الناس ؟ قال : أشعر الناس حياهذيل ، وأشعر هذيل

أبو ذؤيب غير مدافع " وأكثر شعر أبي ذؤيب الذى وصل إلينا مراث ، وله شئ من الخمريات ومن وصف الخيل وبراعة في الطرد ، وفي وصف النحل والعسل خاصة ، وله قصائد قصرها على الغزل .

المختار من شعره يرثى أبناءه الخمسة :

أمن المنون وريبهـــا تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

قالت أميمة ما لجسمك شاحبا ... منذ ابتذلت ، ومثل مالك ينفع

أم ما لجسمك لايلائم مضجعا ... إلا أقض عليك ذاك المضجع

فأجبتها : أرثى لجسمى ، إنه ... أودى بنى من البلاد فودعوا

أودى بنى وأعقبونى حسرة ... بعد الرقاد وعبرة ما تقلع

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم ... فتخرموا ، ولكل جنب مصرع

فغبرت بعدهم بعيش ناصب ... وإخال أنى لاحق مستتبع

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ... وإذا المنية أقبلت لا تدفع

فالعين بعد هموكأن حداقها ... سملت بشوك فهى عور تدمع

حتى كأنى للحوادث مروة ... بصفا المشقر كل يوم تقرع

وتجلدى للشامتين أريهم ... أنى لريب الدهر لا أتضعضع

لا بد من تلف مقيم فانتظر ... أبأرض قومك أم بأخرى المضجع

ولقد أرى أن البكاء سفاهة ... ولسوف يولع بالبكاء من يفجع

وليأتين عليك يوم ، مرة ... يبكى عليك مقنعا لا تسمع

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

الخنســـاء :

هي السيدة تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية، والخنساء لقب غلب عليها ، ولدت ونشأت في أسرة ذات شرف فلقد كان أبوها وأخواها معاوية وصخر من سادات سليم من مضر ، وكانت بارعة الجمال والأدب فخطبها الشاعر المعروف دريد بن الصمة سيد هوازن وفارس الجشم فأبت عليه وتزوجت في قومها سليم وكان دريد بن الصمة قبل إبائها قد مدحها ولما أبت عليه هجاها .

قتل أخواها معاوية وصخر فبكتهما بكاء حارا بشعرها المؤثر البليغ ولا سيما صخرًا لما وجدت فيه حنانًا وإحسانًا وبرًا أكثر ، و رثاؤها فيهما وخاصة في صخر أبلغ الرثاء وبه امتازت على غيرها من الشواعر والشعراء فيعد رثاءها أقوى الرثاء في الشعر الجاهلي ، وهو سبب صيتها وعنوان شهرتها و وفدت مع قومها على رسول الله ﷺ وأسلمت وأنشدته .

واستمر حزنها على أخويها وأبيها حتى ابيضت عيناها من الحزن وقالت:

كنت أبكي عليهم من الثأر وأبكي عليهم اليوم من النار ، حتى هدأ حزنها بمر الزمان وكان لها أربعة أولاد حثهم للجهاد فخرجوا إلى حرب القادسية واستشهدوا جميعا ولكن إيمانها بالله وبالجزاء في الآخرة حفظها من النوح والبكاء ، فلم تزد على أن قالت " الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو أن يجمعنى بهم في مستقر رحمته " ثم توفيت بالبادية عام ٢٤هـ

فاقت الخنساء شواعر العرب كلهن في رصانة شعرها ورقة لفظها وحلاوة جرسه وربما ضارعت في هذه الصفات الشعراء الفحول ويرى النابغة وجرير وبشار أنها أفضل من الرجال .

وقد غلب في شعرها الفخر والرثاء ، وكانت لا تقول إلا البيتين أو الثلاثة ، قبل مقتل أخويها فلما قتلا فاض الدمع من عينها والشعر من قلبها وقد اقتصر شعرها إلى حد كبير في هذا الموضوع وبقيت في شعرها على منهجها القديم بدوية جاهلية .

نموذج من شعرها :

قالت ترثي أخاها صخرًا :

أعيني جودا ولا تجمدا ... ألا تبكيان لصخر الندى

ألا تبكيان الجريء الجميل ... ألا تبكيان الفتى السيدا

طويل النجاد رفيع العماد ... ساد عشيرته أمردا

إذا القوم مدوا بأيديهم ... إلى المجد مد إليه يدا

فنال الذى فوق أيديهم ... من المجد ثم مضى مصعدا

يكلفه القوم ما عالهم ... وإن كان أصغرهم مولدا

ترى المجد يهوى إلى بيته ... يرى أفضل الكسب أن يحمدا

وإن ذكر المجد ألفيته ... تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقالت ترثيه أيضًا :

ألا يا صخر إن أبكيت عينى ... لقد أضحكتنى دهرًا طويلا

دفعت بك الخطوب وأنت حى ... فمن ذا يدفع الخطب الجليلا

إذا قبح البكاء على قتيل ... رأيت بكاءك الحسن الجميلا

ومن قولها :

إن الزمان وما يفنى له عجب ... أبقى لنا ذنبًا واستوصل الرأس

إن الجديدين في طول اختلافهما ... لا يفسدان ولكن يفسد الناس

الحطيئة:

هو أبومليكة جرول بن أوس العبسى ، كان غير واضح النسب ونشأ في بيئة غير ملتزمة لم يكن فيها وازع ، ولا رادع ، بعيدًا عن تربية كريمة ، فشب على سفساف الأمور ومحاقرها ، غير ملتزم بالأخلاق الحسنة والاتجاهات السليمة ، وابتلى بقلة المال وضنك العيش ، فنشأ على الجشع والرغبة إلى المال، بخيلا متذرعًا بالشر ، فمرج لسانه في أعراض الناس ، وهجا من كرهه أو أراد إخضاعه ، وضجر يومًا من نفسه فهجاها وسخط من أمه فهجاها .

نزل يومًا على الصحابى زبرقان بن بدر ضيفًا ولم يرقه قراه فهجاه وتحول إلى خصمه بغيض بن لأى ومدحه فاستعدى عليه زبرقان بن بدر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فحبسه فاستشفع إليه بشعره فأطلقه وحذره من هجاء الناس فقال : إذن يموت عيالى جوعًا ، هذا مكسبى ومنه معاشى فاشترى منه الخليفة أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم فكف عن الهجاء حتى توفى الخليفة ثم عاد إلى طبعه حتى مات سنة ٥٩هـ ، ومع كل هذا فإنه شاعر متين الشعر ، رائق الأسلوب شرود القافية متصرف في فنون القول من مديح وهجاء ونسيب وفخر ، ولولا سوء خلقه وتبذل سيرته لفاق المخضرمين من الشعراء ، فإن كلامه يخلو من كثير مما يقع في شعر غيره من ركاكة في اللفظ أو نبو في القافية ، وقلما يوجد في هجائه إفحاش أو هجر ، والحطيئة لقب له لأنه كان قصيرًا ، ولد في بنى عبس دعيًا لا يعرف له نسب استولده أوس ابن مالك العبسى سفاحًا من جارية إسمها الضراء كانت بنت رياح بن عمرو، ثم إن الضراء تزوجت الكلب بن كنيس بن جابر العبسى وكان أيضا مدخول النسب .

ولقد استفرغ الحطيئة شعره في مديح بنى قريع ثم أكثر الهجاء .

نموذج من كلامه :

له في المديح وهو من جيد شعره .

ألا طرقتنا بعد مـا هجعـوا هند ... وقد جزن غورًا واستبان لنا نجد

وإن التى نكبتهـا عن معـاشر ... على غضاب ان صددت كما صدوا

أتت آل شمـاس بن لأى وإنمـا ... أتاهم بها الأحلام والحسب العد

يسوسون أحلاما بعيدًا أناتهـا ... وإن غضبوا جاء الحفيظة والجد

أقلوا عليهم ، لا أبـا لأبيكـم ... من اللوم أوسدوا المكان الذى سدوا

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى ... وإن عاهدوا أوفوا، وإن عقدوا شدوا

وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها ... وإن أنعموا لا كدروهـا ولا كـدوا

وإن قال مولاهم على جل حادث ... من الدهر: ردوا فضل أحلامكم ردوا

وإن غاب عن لأى بغيض كفتهم ... نواشئ لم تطـرر شـواربهم بعـد

مطاعين في الهيجاء مكاشيف للدجى ... بنـى لهـم آبـاؤهم وبنـى الجـد

وتعذلنى أبناء سعد عليهـم ... وما قلت إلا بالذى علمت سعـد

ومن شعره الذى عرض فيه بالزبرقان بن بدر ﷺ :

واللّه ما معشر لاموا إمرءًا جنبًا ... في آل لأى بـن شمـاس بأكيـاس

ما كان ذنب بغيض لا أبـالكم ... في بـائس جاء يحدو آخر النـاس

لما بدا لى منكم عيب أنفسكـم ... ولم يكـن لجراحـى منكـم آسـى

أزمعت يأسًا مبينًا من نوالكم ... ولـن تـرى طـاردًا للحـر كاليـأس

جار لقوم أطالوا هون منزلـه ... وغـادروه مقيمًـا بـين أرمـاس

ملوا قراه وهرته كلابهـم ... وجرحـوه بأنيـاب وأضـراس

دع المكارم لا ترحل لبغيتهـــا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهـــب العرف بين الله والناس

النابغة الجعـــدى:

هو أبو ليلى حسان بن قيس بن عبدالله من جعدة بن كعب بن ربيعة أحد بنى عامر بن صعصعة ، كانت مساكن قومه في الفلج(والفلج ماء في جنوبى نجد) وقيل: إن أمه كانت امرأة من أهل هجر يقال لها خصفة .

والنابغة الجعدى أقدم من النابغة الذبيانى ، فإن النابغة الذبيانى أدرك النعمان بن المنذر بينما النابغة الجعدى أدرك المنذر بن محرق والد النعمان هذا .

شهد النابغة الجعدى فتح فارس ، ثم شهد معركة صفين مع على بن أبى طالب وكان في ذلك الحين يسكن الكوفة ، ثم أدرك خلافة معاوية وكانت وفاته في أصفهان سنة ٦٥هـ ، في أواخر خلافة مروان بن الحكم أو في مطلع خلافة عبدالملك وكف بصره وزادت سنه على مائة .

النابغة الجعدى شاعر مخضرم مطبوع فصيح يجرى شعره على السليقة ولا يتكلف صنعة ، إلا أن شعره شديد التفاوت ، منه الجيد البارع ومنه الردئ الساقط، وفنون شعره المشهورة ، المديح والهجاء والوصف ، وكان من أوصف الناس للفرس ، ثم الحكمة ، وفي شعره شئ من الاقذاع ومن العجيب أنه كان مغلبًا .

ولقد قرض شعرًا في الجاهلية وانقطع أيامًا ثم عاد إلى قرضه في عهده الإسلامي ، وتوجد في شعره الإسلامي معان إسلامية .

المختار من شعره :

قال النابغة الجعدى يرثى ابنا له اسمه محارب ، ويذكر أخا له اسمه وحوح وهو في ذلك يخاطب زوجته :

ألم تعلمى أنى رزئت محاربا ... فمالك بعد اليوم خير ولاليا

وقبله مـــا قد رزئت بوحوح ... وكان ابن أمى والخليل المصافيا

فتى كملت خيراته غير أنـــه ... جواد فما يبقى من المال باقيًا

فتى تم فيه ما يسر صديقه ... على أن فيـــه ما يسوء الأعاديا

أتى النابغة الجعدى إلى الرسول ﷺ وأنشده :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلـو كتابـا كـالمجرة نـيرًا

بلغنا السماء مجدنا وجدودنـــا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن لـــه ... حليم إذا ماأورد الأمر أصـــدرا

ولا خير في حلم إذا لم تكن لـــه ... بوادر تحمى صفوه له أن يكدرا

وقال في المعانى الدينية ، وقدألم بكثير من المعانى ما وردت في القرآن الكريم:

الحمد لله لاشريك لـــــــه ... مـن لم يقلهـا فنفسـه ظلمـا

المـولج الليـل في النهـار وفي الليـل نهـارًا ويفـرج الظلمـا

الخافض الرافض السماء على الأرض ... ولم يـــبن تحتهـــا دعمـــا

يا أيها الناس هـــل ترون إلى ... فـارس بـادت وخدهـا رغمـا

فأمسوا عبيـدا يرعون شاءكم ... كأنمـا كـان ملكهـم حلمـا

أو سبأ الحـاضرين مأرب إذ ... يبنـون مـن دون سيله العرمـا

فمزقوا في البلاد واعترفـــوا ... الهون و ذاقوا الباساء والعدما

القسم الثانى

عهد بنى أمية

الباب الأول

أدب هذا العهد أسسه وأصنافه

الفصل الأول

العوامل والمؤثرات

الخلفية الاجتماعية والسياسية:

لقد كان العرب قبل الإسلام متشتتين فيما بينهم على أساس القبيلة والنسب ، وكانت تظهر بذلك فيهم المنازعات والخصومات وتتجدد العداوات.

ولم يكن لهم تنظيم يجمع وحداتهم وأقسامهم في رباط واحد سوى توافقهم في الثقافة واللغة والدم ، وهو الذى كان يجمعهم في وحدة .

وجاء الإسلام فأصلح فسادهم وأزال فرقتهم ، ونظمهم في سلك واحد ، فكانت وحدة شاملة أساسها الأكبر هو الدين الإسلامي ، وأثرت هذه الوحدة في اتجاهات حياتهم الدينية والسياسية والاجتماعية ، وذلك بفضل تعاليم الإسلام ، يقول الله تعالى : ﴿ واذكروا إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ .

فصار وضعهم الاجتماعى بالإسلام وضعًا إيجابيًا منظمًا تحت التوجيهات القرآنية والنبوية الكريمة ، فأصبح بعضهم يتعاون مع بعض ويشترك بعضهم مع بعض على أساس المصلحة الواحدة والهدف الواحد ، وتحولوا بذلك إلى مجتمع إنسانى صالح مؤمن ، وبيئة إسلامية راشدة ، نشأت

من ذلك سياسة موحدة واتجاه اجتماعى موحد بدلا من التفرق القبلى والتشتت الأنانى ، فأصبحت لهم حكومة مركزية جامعة لمناطق الجزيرة العربية المختلفة تحت لواء واحد وأمير واحد ، وهو محمد بن عبدالله الرسول العربى القرشى الكريم ﷺ ، ثم تلاه خلفاءه الراشدون ، وبقى لهم ذلك عقودًا من السنين ولم يضعف إلا عند ما بدأ يؤثر على المجتمع الإسلامي المثالى توافد الأجانب من أبناء البلاد الأخرى من الموالى ومن أهل المهن والصناعات بتأثير اتساع رقعة الحكم والاختلاط بالآخرين وظهور جوانب متنوعة للحياة الجديدة في الإطارات الاجتماعية والإدارية والتنظيمية وكثرة الرقيق والسبايا نتيجة الغزوات والفتوح ، ونشأت من هذا وذاك مشكلات سياسية واجتماعية فى حياة هذا العهد، وظهر أثرها فى نشوء اختلافات فى وجهات النظر فى الحكم والإدارة وخاصة بتأثير أبناء الشعوب المجاورة الذين دخلوا فى بلاد الإسلام و مراكزه وانضموا إلى الشعب العربى برواسبهم الثقافية والاجتماعية والعقلية ، وكانوا يحملون قدراً من نفسياتهم وطبائعهم السابقة فمهد ذلك مع الزمن إلى ظهور تكتلات سياسية امتزجت بالآراء الدينية وانتماءات النسب والدم ، واشتدت الخلافات وتطور الأمر بمر الزمان إلى حالة هياج سياسى خاص حدث فيها أن تمردت فيه طائفة من الناس ، وسفكوا دم الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه بعد أن مكث فى الخلافة أكثر من عشر سنوات فكانت فتنة لم يكن لها نظير فى العهد الإسلامى السابق .

وتولى الخليفة الرابع على بن أبى طالب رضى الله عنه ولاية أمر المسلمين فى وضع سياسى مكفهر مضطرب ، وتكتل المسلمون كتلتين ، كتلة تنادى بالإسراع فى الأخذ بثأر الخليفة الشهيد من الثوار ، والمتمردين

الذين تفرقوا فى البلاد ، و كتلة متأنية فى الأمر تؤثر تنظيم الأمور و ضبطها أولا ، و أفضى هذا التكتل إلى معاداة وقتال بين المتعارضين ، نشأت منه فرقتان : فرقة الشيعة ، و هى اختارت المغالاة فى موالاة على بن أبى طالب رضى الله عنه وآله إلى حد التقديس، وفرقة الخوارج ، وهى رفضته ورفضت مخالفيه معه وعدتهم خارجين من الإسلام وذلك بجنب حزب سياسى معارض تحت زعامة معاوية بن أبى سفيان الأموى ﷺ أمير ولاية الشام .

وحكم الخليفة الرابع على بن أبى طالب ﷺ أربع سنوات وتسعة أشهر واستشهد بعدها بيد رجل خارجى، واختار المسلمون نجله الأكبر الحسن ابن على ﷺ خلفًا ولكنه بعد ستة أشهر من خلافته تصالح مع معاوية بن أبى سفيان ﷺ وتنازل له عن الخلافة وتم الأمر لمعاوية بن أبى سفيان ﷺ وانتهى به صدر الإسلام وبدأ العهد الأموى في حالة اضطراب وفوضى في المجتمع الإسلامي السياسى وتأثرت به اتجاهات المسلمين وآراؤهم ، وظهرت آثار ذلك في أدبهم وشعرهم .

الحالة الاقتصادية والثقافية:

أما في الجانب الاقتصادى فقد كان العرب في حياتهم الجاهلية يعانون قلة في وسائل الحياة ، وفقرًا في المعيشة ، لم تكن أرضهم تغل لهم ما يكفيهم من المتطلبات المادية لكونها قاحلة ، ولكون حياتهم عاطلة إلا من وقائع خصام ومعارك حربية قبلية ، وهى التى كانت تدر عليهم ببعض المال الذى كان يحصل لهم من السلب والنهب وغنائم القتال ، أو من اقتناء البعير والغنم فكانوا يستفيدون من لحومها وألبانها ، وكانت بعض القبائل مثل قريش تقوم بالتجارة والبعض الآخر مثل سكان المدينة يقوم بالاستفادة من

حصوبة الأرض و زراعتها .

فلما جاء الإسلام ونشر الفضيلة والخير ودعا إلى الايمان والوئام ، واجتمع العرب تحت لوائه وتوحدت آمالهم وأهدافهم وقاموا بنشر الخير والدعوة والجهاد فخضعت لهم الأمم المجاورة ، وتهافت أمامهم القوى الكافرة، وانهالت عليهم الغنائم وكثر الرقيق وتوفرت الأموال ، وأصبح ذلك كله سببًا لخفض العيش ورغد الحياة ، انتقلوا به من الفقر وقلة المال إلى الثروة والغنى والرفاهية ، فمال إليهم طلاب مال وأهل الحرف والصناعات من مختلف الأطراف يقومون بقضاء حاجتهم إلى الصناعة والعمل ، وسدوا بذلك النقص في حياتهم المتدرجة إلى التطور والمدنية ، يكتب العلامة ابن خلدون في مقدمته مشيرًا إلى ذلك " لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبنائهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليه ، فأفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية من ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثى فأتوا من ذلك وراء الغاية ".

في هذه البيئة المرفهة ولد ونشأ الجيل الإسلامي الجديد وحصلت له وسائل الحضارة والترف فجر ذلك طائفة من شبابه إلى حياة الدعة والأدب والشعر ، وأغراهم بالغزل والشعر الرقيق بوجه خاص ، وحرك ذوقهم إلى الغناء واللهو ، وكان شباب الحجاز أكثر ملائمة لذلك لكون أرضهم مهد المجاهدين الأولين ومركز قادة الإسلام ، فكان طبيعيًا أن تنهال عليهم الغنائم وتكثر لهم العطايا وينالوا التقدير والاحترام بصورة أكبر فوجد شبابهم المال والفراغ .

وكانوا في نزعاتهم السياسية غير موافقين لبنى أمية ، فأراد الحكام أن ينصرفوا إلى نعومة العيش وحياة الأدب والشعر فبذلوا لهم عطاياهم بسخاء وزادوا من عطاياهم .

فكان كل ذلك سببًا في ميل الشباب في الحجاز بصورة كبيرة إلى وسائل المتعة والتلهية.

هذا في جانب ، أما في جانب آخر فقد امتازت حياة هذا العهد بأعمال الجد والاجتهاد أيضًا من مثل خدمة العلم وتوسيعه والتربية الدينية ونشر الدعوة والقيام بالجهاد حيث كانت تخرج جيوش المسلمين تحت قادة أبطال من الحجاز يرافقها العلماء والدعاة والعظماء أيضًا ويتوجهون إلى أطراف الدنيا ، فالجيوش الإسلامية تغزو البلاد ، والدعاة والعلماء يبثون في أهاليها الدين والعلم ، ويعلمونهم مكارم الأخلاق وينشرون فيهم الإسلام ، وعم بجهود العلماء والمحققين الاهتمام بالعلم وبدأت حركة تدوين العلوم الإسلامية مثل الحديث الشريف والفقه والعلوم المتصلة بهما ، ونشأت علوم إسلامية ، على قواعد قوية ثابتة وتفرعت إلى فروع مختلفة .

وأثرت حركة الجهاد ففتحت أقطار كثيرة وتوسعت رقعة العالم الإسلامي من الهند والسند في الشرق وإلى المغرب وأسبانيا في الغرب . كما نشأ بتأثير التربية على الصلاح والتقوى إقبال على الزهد لله والعبادة له فظهر في المجتمع الإسلامي عظماء في النسك والعبادة والحياة الربانية فقد ذكرت كتب التراجم طائفة كبيرة منهم بلغوا في تمسكهم في الحياة الربانية مبلغًا عظيمًا وأثر كل ذلك على أطوار الحياة والأخلاق وعلى الفكر والأدب ، وأثر على الأساليب الأدبية وتجلت صوره في نصوصها ومنها ما تجلى في الشعر .

الفصل الثانى

أغراض الأدب وأقسامه

هذه هى الأوضاع التى نشأ فيها أدب المرحلة الجديدة بجنب ما ورثه من نصوص الأدبين الجاهلى والمخضرم .

أما ما انتقل إلى الجيل الجديد من العهد السابق من التراث الأدبى السابق فهو في النثر : نصوص من الخطابة والوصية والحكمة والمثل والرواية وفي الشعر : نصوص من المديح والفخر والهجاء والحماسة والرثاء والحكمة وغيرها.

النثـــــر:

أما النثر فنرى أنه إلى حد كبير امتداد لنثر صدر الإسلام بما فيه عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين المهديين ، واقتداء له بقوة وبراعة مع صور ثقافية جديدة نشأت فيه بحكم الظواهر الاجتماعية والثقافية الجديدة للعهد الجديد.

وكان تأثير العقلية الإسلامية التى استفادت من القرآن الكريم والحديث الشريف روحها وطبيعتها ظاهرًا منه .

وبرزت من أغراض النثر في هذا العهد الخطابة بصورة خاصة ثم

الرواية والترسل ، ثم التوقيعات .

أما الخطابة فقد قويت بحكم اتساع عمل الدعوة و التربية والعمل السياسى والاجتماعى في هذا العهد وكثرت فيها الجزالة و ازداد البسط .

أما الرواية فقد قويت أيضًا وتوفرت أمثلتها وكثر عملها لكونها وسيلة لنقل أحاديث الرسول ﷺ وبيان أحكام الدين الإسلامي ، وذكر أيام العرب وأنسابهم و وقائعهم.

أما الترسل فكانت مقتضيات النظم الحكومى والإدارى وضرورات الحياة الاجتماعية تتطلب وجود مثل هذا اللون من الأدب ، فبدأ اهتمام الناس بكتابة الرسائل في مجالات الحياة الاجتماعية والسياسية المختلفة .

وأما التوقيعات فكانت أحكامًا وتعليقات من الحكام على طلبات الناس ورسائلهم ، وسيأتى تفصيل أحوال النثر في محله .

الشعـــــر:

أما الشعر فقد أثر الإسلام فيه عند ظهوره و أوجد فيه تحفظًا واحتياطًا يتجنب مواضع الزلل والضلال وبذلك توقفت أو قلت معانى الفحشاء وأحاديث المنكر والتغنى بالمآثر القبلية الجاهلية في ذلك العهد وحل محلها البيان القرآنى واسترعت بلاغة القرآن انتباه الناس فاشتد إصغاؤهم وتذوقهم له فانحصر الشعر لدى كثير من الشعراء في الجوانب المهمة من حياتهم الإسلامية الجديدة وفيما يحوجهم للدفاع عن دينهم الجديد وردهم لهجمات أعدائهم ومقاومة شرهم كما ظهر في شعر المديح منه مديح الرسول ﷺ ومديح أصحاب المآثر الإسلامية وذوى الفضل في

مجالات الخير الإنسانية وفي شعر الرثاء على من ضحوا بحياتهم في سبيل الفضيلة والخير.

واستمر ذلك في الجيل المخضرم الذى نشأ وتربى ذوقه الأدبى والشعرى في الجاهلية ولكنه انخضع لتعاليم الإسلام فحصر المعانى الأدبية والشعرية في الإطار الإسلامي إلى أن جاء العهد الأموى بالجيل الجديد وكان منشأه على أدب الجيل الإسلامي الأول وشعره ، وعلى الشعر الجاهلى الذى نقله إليه الجيل الأول ليكون مرجعًا لغويا وتاريخيًا للأجيال الآتية.

إستفاد جيل هذا العهد مع أخذه وتناوله من بيان القرآن وأدب الحديث وأدب صدر الإسلام بصورة كبيرة ، من شعر العهد الجاهلى أيضًا وذلك بقراءة نماذجه للاستعانة بها لفهم غريب ألفاظ القرآن ولتقوية ملكاتهم الأدبية ولكن معانى هذه النماذج تركت في نفوس الشباب أثرًا قربهم إلى الاستمتاع بالكلام العربى المتجاوز لحدود الحشمة والالتزام الخلقى فساق ذلك أفرادًا منهم إلى التبسط أيضًا في هذا المجال ، وإلى استحداث صور مشابهة له جديدة فكان منها الغزل الرقيق وقد تجاوز هذا الغزل حينًا إلى الإباحية المحظورة أيضًا وعم الغزل الرقيق بصورة خاصة في مجالس الأدب والغناء في العهد الجديد ، وكان أغلبه تقليدًا أدبيًا لإضفاء قوة و روعة فنية كانت تتلائم مع الأذواق العربية المأثورة ولم يكن تقليدًا في مجال السيرة والسلوك والحياة إلا عند بعض الشباب وفي أحوال خاصة.

هذا في جانب ، وفي جانب آخر أثارت المنازعات السياسية القبلية التى ظهرت منذ بداية العهد الأموى عواطف العصبية الطائفية أيضًا، وهى بدورها أفضت إلى استثارة روح العصبية القبلية الجاهلية الدفينة في النفوس، فظهر ذلك في كلام شعراء هذا العهد من أصحاب النفوس المنفعلة بهذه الصفة، وبخاصة منهم من الشعراء الموالين لسياسة بنى أمية والشعراء المعارضين لها من مخالفيهم ، وعمل في ذلك الفخر والهجاء بصورة خاصة واشتملت على الخصومات الشخصية والطائفية وصارت قسمًا بعينه ، وشغف به الناس وراج في أوساط الأدب .

الفصل الثالث

نهضة جديدة للشعر

النهضة الشعرية :

لقد ظهر أثر العهد الإسلامي الأول على الشعر بصورة خاصة منذ هذا العهد بتأثير نشأة الجيل الجديد على الأوضاع الجديدة بصورة كاملة وبحكم عودة القرائح الأدبية إلى نشاطاتها على الخط الشعرى الجديد .

فبرزت في الشعر الجديد أنواع ، وتهذبت ، وتطورت أنواع ، كما أن النشاط الشعرى قد قوى في مناطق ، وضعف في مناطق لأسباب وعوامل أثرت منذ العهد الجديد .

المناطق الشعرية :

العراق :

ومن المناطق الخاصة للنشاط الشعرى في هذا العهد منطقة العراق ، فقد امتازت في شعر الخصومات السياسية والقبلية في هذا العهد ، وكان شعر هذا النوع إما سياسيًا وهو الذى كان يقال في الخصومة الأولى ، وإما قبليًا وكان وقودًا لحرب المناقضات بين الشعراء ، واشتهر منهم بقوة العارضة جرير

والفرزدق والأخطل الذين أضافوا إلى ثروة شعر عهدهم عنصرًا ضخمًا للمناقضات .

أما الشعر السياسى الدينى فقد اشتهر فيه من الشيعة الكميت بن زيد ، ومن الخوارج الطرماح بن الحكيم وقطرى بن الفجاءة .

على كل فقد وجد الشيعة بصورة كبيرة أرضا خصبة في العراق ، وذلك لظهور أحوال كانت تحرك النفوس وتثير فيها العواطف بتأثير ظهور منازعات مختلفة من سياسية ودينية وحزبية ، فكثر فيه الشعراء واحتفى بكلامهم أهل العراق خاصة وأهل المناطق الأخرى عامة ، وقد كان أكثر فحول الشعراء لهذا النوع من العراق .

الشـــام :

أما الشام فلم يظهر فيها من الشعراء العظام إلا عدى بن الرقاع العاملى وهو لا يساوى كبار شعراء العراق ، ولم تكن بيئة الشام غنية من ناحية الشعر وإنما كان الشعراء يأتون إليها من أطراف أخرى لكسب التقدير والمال ، ولعل السبب في ذلك هو أن أهل الشام كان مجال همهم الأكبر هى مسئوليات الإدارة والحكم ، وكان حالهم في هدوء وراحة أكثر من غيرهم لكون بلدهم مركزًا للخلافة ، ومع ذلك نرى أن بعض الخلفاء الأمويين قد ساهموا في قول الشعر مثل يزيد بن عبدالملك وولده وليد بن يزيد ، ولكن لون شعرهما كان هو اللون الغزلى المستفاد من حياة المتعة واللذة .

الحجـــاز :

أما الحجاز فقد امتاز في شعر الغزل وفاق شعراؤه في ترقيقه فنال

بذلك الغزل فيه تنوعًا وسعة ورواجًا ، ساعد في ذلك ميل شباب الحجاز إليه وساعد فيه الثراء والمال الكثير الذى وصل إلى أيديهم و ما حصل لهم من الفراغ في أوقاتهم وتوافد أهل الفن إليهم من أنحاء البلاد فنبغ من الشعراء جميل بن معمر و كثير بن عبدالرحمن وغيرهما .

أما اليمن ومصر والمغرب والأندلس في العهد الأموى فكانت أكثر تخلفًا في الشعر .

تطورات جديدة في الشعر:

دخل في الشعر منذ هذا العهد تحرر من أكثر الاحتياطات التى كان الشعراء في صدر الإسلام يختارونها ، فقيل شعر كثير في الأغراض المختلفة بالصورة التى كانوا يختارونها قبل الإسلام مثل المديح والفخر والهجاء والرثاء والغزل وغيره ، غير أنهم رققوا هذه الأغراض وهذبوها وطوروها تحت تأثير الحياة الحضرية الجديدة التى اشتملت على قدر من الثقافة والعلم والمعارف الإسلامية الحاصلة من مصدرى الشريعة الإسلامية وبقدر من الثقافة الوافدة من بلاد متحضرة مجاورة .

الغـــزل الرقيـــق :

أما الغزل فقد تأثر بصورة أكبر بحياة الدعة والرفاهية والثراء التى دخل فيها العرب في هذا العهد بفضل الغنائم والعطايا الحاصلة للمجاهدين والغزاة وأبناء الصحابة المقدمين في الإسلام ، فقد جعل ذلك شباب الأسر الغنية راغبين في الاشتغال بالثقافة والشعر والفن ، وانتهز الشعراء المتكسبون والمحترفون بالفنون الفرصة للاستفادة من ثراء هؤلاء الشباب فنشأ بذلك الميل

إلى الغزل ورق قوله وتوسع بعض الناس فيه فظهرت في شعرهم لوثة من الإباحية والصراحة بعض الأحيان ، ومن أهم شعراء هذا النوع عمر بن أبى ربيعة الذى امتاز بذكر أحوال الغرام والهوى ، وامتاز بالحوار والقصص في غزله ، و وليد بن يزيد الخليفة الأموى الذى جهر بالمحظور وذكر الخمر و وصفها وذكر غرامه بها .

ولكن وجد بجنب ذلك نوع من الغزل الرقيق فيه تحرق و صدق مع العفاف والطهر ، وسمى بشعر الحب العذرى ، وأهم من أثر عنهم مثل هذا الغزل جميل بن معمر صاحب بثينة ، وكثير بن عبدالرحمن صاحب عزة ، وقيس ابن ذريح صاحب لبنى، وتوبة بن الحمير و صاحبته ليلى الأخيلية . فقد وصفوا تحرقهم وهيامهم في الحب وبرعوا في ذكر أحوال الحب بدون فسق وإباحية ، فقد تحدثوا عن آلام أفئدتهم وحرمانهم وعذابهم النفسى بأسلوب سليس سهل مؤثر ، وأكثر ما حدث ذلك في قبيلة عذرة وكانت تسكن في غربى نجد فسمى هذا الحب بالحب العذرى ولقد امتاز هذا العهد بهذا النوع العفيف من الغزل على العهود الأخرى ، أما الغزل العام فقد جرى على الطريق القديم ، اتبع الشعراء فيه السابقين مع قليل من التطوير الذى استلزمته الحياة الحضرية الجديدة ، وامتاز فيه ذو الرمة صاحب مية ، وعدى ابن الرقاع العاملى ، وعروة بن أذينة وغيرهم .

الشعر الجدلى :

أما الفخر والمديح والهجاء فقد أثرت فيها خلافات نظرية دينية وسياسية ، ظهرت في حياة المسلمين منذ نهاية الخلافة الراشدة وتكونت

اتجاهات ضد الحكم الأموى وأخرى في تائيده . وتطور حب آل على بن أبى طالب إلى نزعة سياسية مذهبية ، وظهرت نزعة سياسية مذهبية مختلفة عنها ، فنشأ من ذلك شعر الجدل السياسى والمذهبى ، جاءت نصوصه على ألسنة الشعراء الممثلين للشيعة ، والشعراء الممثلين للمذهب الخارجى ، والشعراء المؤيدين لخلافة عبدالله بن الزبير والشعراء المؤيدين للخلافة الأموية.

وتطور الأمر تحت تأثير السياسة وتوزع الشعراء على الأحزاب وأخذوا ينظمون شعرهم معبرين عن نظريات سياسية جديدة وكان حزب الأمويين أكثر نفرًا وكان يليه حزبا الشيعة والخوارج ، أما حزب الزبير فكان أقل الأحزاب شعرًا و شعراء .

واشتهر من شعراء هذه الفئات المختلفة الكميت بن زيد في تمثيل الشيعة و في الحب لآل البيت ، والطرماح بن الحكيم في تمثيل الخوارج وحبهم و رفض الآخرين ، كما مثل عبدالله بن قيس الرقيات عبدالله بن الزبير على الصعيد السياسى والمذهب الشيعى على الصعيد المذهبى ، ومدح الأخطل أمراء بنى أمية وأشاد بعظمتهم بشعره .

النقـــائض :

وتنوع هذا الجدل الشعرى وتطرق من السياسة والدين إلى القبيلة والفردية وبدأت المعارك الشعرية في هذا المجال أيضًا ونشأ منه شعر المناقضات ، وكان نوعا جديدا بالنسبة إلى المنهج و المعنى ، كان يقتبس من المنازعات الشعرية القبلية القديمة بمنهجها وخصائصها الأساسية ويبنى عليها خصائص جديدة مقتبسة من التطور الأدبى و الثقافى والنظرى الجديد

فاشتمل على مخاصمات قبلية وفردية ومهاجاة بين شاعرين يلتزم كلاهما بوزن واحد وقافية واحدة وينقض أحدهما قول الآخر معتمدًا على ذكر مآثر قبيلته ومواضع الضعف والمهانة لقبيلة خصمه وأصبحت هذه النزعة الشعرية اتجاهًا سائدًا بين طائفة من شعراء هذا العصر.

فقد جاء في الأغانى أن مساور العبسى كان يتهاجى مع المزار الفقعسى الأسدى وابن ميادة الذبيانى يتهاجى مع الحكيم النمرى المحاربى ويتهاجى زياد الأعجم مولى عبدالقيس مع كعب الأشقرى وقتادة اليشكرى مع المغيرة بن الجبناء التميمى.

وجرير مع الفرزدق وجرير مع الأخطل، وطال الجدل والتهاجى الشعرى بين جرير والفرزدق وكثرت قصائدهما وزاد ذلك في الثروة الشعرية لهذا العهد وصار شعر النقائض لكثرته ولإجادة الشاعرين فيه صنفًا بعينه من شعر هذا العهد.

التأثير الدينى في الشعر:

واصطبغ شعر هذا العصر بالصبغة الدينية كذلك وامتزج أحيانًا بالسياسة لأنها كانت تتصل بفكرة إمامة المسلمين وخلافتهم فطبيعى أن يصب فيه الدين ثم إن عهد الخلافة الراشدة وعهد النبوة كانا قريبين فكان تأثير الاتجاهات الدينية باقيًا وقويًا، وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا إن كثيرًا من صفحات الشعر الأموى طبع بطابع دينى ومثاله ماتراه في قصيدة الطرماح التى أولها:

كل حى مستكمل عدة العمر ومـــــؤد إذا انقضى عده

وإلى عدد من قصائده الأخرى، ويمتلئ ديوان ذى الرمة بعناصر

إسلامية كثيرة من ذكر الصلاة وقصرها في الشعر و ما يكون من التيمم وتلاوة القرآن و إحياء الليل مثل قوله :

إذا انجلى البرق عنه قام مبتهلا لله يتلوله بالنجم والطور

وفي شعر عروة بن أذينة فقيه المدينة نجد صورًا للأفكار الدينية من ذكر الموت ومدح التوكل على الله ، وعلى كل فإنه لا يخلو شعر أكثر الشعراء من معان دينية إسلامية بل ونجد لعدد منهم قصائد كاملة في هذا المجال وتشتد هذه النزعة في مناسبات خاصة فحينا يتصل بالعاطفة الدينية وحدها وحينا يتعلق بالسياسة الحزبية و هو ما نراه في شعراء الشيعة والخوارج .

الرجـــــز :

واهتم عدد من الشعراء في هذا العصر بالرجز واعتنوا به كثيرًا مثل العجاج وابنه رؤبة و أبو النجم العجلى ، ونرى أن بعض الرجاز رأى أن يستهل بعض ما ينشئ من أراجيزه بالحمد والثناء على الله بدلا من الوقوف بالأطلال والبكاء . فأبو النجم العجلى يبتدئ أشهر أراجيزه بقوله :

الحمد لله الوهوب المجزل .....

بينما يبتدئ العجاج أهم أراجيزه بقوله :

قد جبر الدين الإله فجبر.....

و في ديوانه أرجوزة يفتتحها بقوله :

الحمد لله الذى استقلت بإذنه السماء واطمأنت

ويستمر فيتحدث عن خلق السموات والأرض وما يكون من البعث والنشور و يتحول إلى ما يشبه الواعظ .

الباب الثانى

الشعر و رجاله في هذا العهد

الفصل الأول

الغـــــزل

الغـــزل العفيـــف :

أما الغزل فقد ملأ جانبًا واسعًا من المجال الشعرى في هذا العهد وتنوع كما ذكرنا إلى أقسام ، ومنها الغزل العذرى منسوبًا إلى قبيلة بنى عذرة التى اشتهرت بحوادث من الحب الصادق العفيف ، عبر عنها المحبون بذكر ولههم وهيامهم في شعر مؤثر مصور لآهاتهم ، يعرضون فيه سوانحهم النفسية والشعورية ، فأصبح شعرهم هذا نوعًا بعينه ، عرف بالغزل العذرى ، وشاركهم في ذلك أبناء قبيلة عامر أيضًا ، واشتهر من شعراء هذا النوع من الشعر قيس ابن ذريح ، وقيس بن الملوح وهو مجنون ليلى ، وتوبة بن الحمير وليلى الأخيلية وقد تبادلا الحب والشعر فيما بينهما ، واشتهر جميل بن معمر بشعره في بثينة ، وكثير بن عبدالرحمن بشعره في عزة ، أما قيس بن ذريح فكان سابقًا في هذا المضمار عشق بنت عمه لبنى وحرم الزواج معها فعبر عن هيامه وجواه في شعر كثير بليغ ، وجاء بعده قيس بن الملوح وهو العاشق المشهور بالمجنون الذى طبق صيت حبه لليلى الآفاق وحيكت حوله الأساطير والحكايات ، وعبر عن حبه بشعره كما نسب إليه شعر كثير أيضًا .

أما قيس بن ذريح فإنه كان من عشاق العرب المشهورين ومعظم شعره في حبيبته لبنى ، وكان من بنى بكر من كنانة وكان أخا الحسين بن على بن أبى طالب ﷺ من الرضاعة ، نشأ قيس في المدينة و فيها رأى لبنى بنت الحباب الكعبية فأحبها وأحبته وأراد الزواج بها فمنعه أبوه عن ذلك . وكان قيس وحيدًا لأبويه وكان أبوه غنيًا جدًا فأراد أن لا تنصرف ثروته إلى غير أسرته فاستشفع قيس الحسين ﷺ فاسترضى أبويه ، وذلك لو جاهته الدينية ، وتزوج قيس بلبنى ، ولكن لم يولد لها ، فطلب والد قيس من قيس تطليقها فطلقها ولكنه جن جنونا و توفى في سنة ٦٨ هـ بعد وفاة لبنى بسنة .

وشعر قيس جميل المعانى سهل التراكيب متين السبك وكان قيس ابن الملوح (مجنون ليلى) يعجب بشعره .

قال قيس :

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها ... مقالة واش أو وعيد أمير

فلن يمنعوا عينى عن دائم البكا ... ولن يذهبوا ما قد أجن ضميرى

إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى ... ومن حرق تعتادنى و زفير

و من حرق للحب في باطن الحشى ... وليل طويل الحزن غير قصير

سأبكى على نفسى بعين غزيرة ... بكاء حزين في الوثاق أسير

أما مجنون ليلى فهو قيس بن الملوح بن مزاحم من بنى كعب من عامر بن صعصعة أحب ليلى وهى بنت مهدى بن سعد من بنى كعب أنفسهم و تكنى أم مالك و قد كان قيس وليلى في صغرهما يرعيان الغنم فنشأت بينهما المحبة .

ولما اشتهر حب قيس و ليلى كره أبو ليلى أن يزوج ليلى بقيس و

زوجها رجلا آخر فذهب عقل قيس ولكنه ظل يذكر ليلى .

مجنون ليلى شاعر رقيق حلو الألفاظ رائق الأسلوب وقد نحله الرواة شعرًا من جنس شعره .

وقد تركت قصة مجنون ليلى أثرًا كبيرًا في الأدبين الفارسى والأردى توفي سنة ٧٠هـ .

ومن شعـــره :

تداويت من ليلى بليلى من الهوى ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ألا زعمت ليلى بأن لا أحبهـــا ... بلى ، واللياالى العشر والشفع والوتر

إذا ذكرت يرتاح قلبى لذكرهـــا ... كما انتقض العصفور من بلل القطر

توبة بن الحمير وليلى الأخيلية :

أما توبة فهو توبة بن الحمير بن حزم بن كعب من عامر بن صعصعة، أحد العشاق العرب المتيمين كان في أول أمره امرأ غزلا مغامرا وصاحب غارات ، وعشق توبة ليلى الأخيلية وخطبها إلى أبيها ولكنه أبى و زوجها من غيره ، ولكن توبة قصر همه على ليلى وظل وفيا لها ، وقتل توبة في نزاع مع قومه سنة ٨٠هـ

وتوبة شاعر غزل رقيق فصيح الألفاظ سهل التراكيب قوى العاطفة وليلى الأخيلية هى ليلى بنت عبدالله بن الرحال من كعب بن معاوية الدخيل من عامر بن صعصعة ونشأت ليلى مع ابن عم لها توبة الحمير فأحبها وطلب من والدها تزويجها به فرده والده و زوجها من غيره ثم إن توبة ظل يزورها حتى شكاه أهل ليلى إلى السلطان فأهدر دمه الوالى ، ولما مات قالت ليلى في

رثائه شعرًا كثيرًا ماتت ليلى في نحو سنة ٩٠هـ.

وليلى من النساء المتقدمات في الشعر لا يتقدمها من النساء إلا الخنساء. وشعر ليلى متين السبك على المنهج القديم ومعظم شعرها في رثاء توبة.

تقول ليلى الأخيلية في رثاء توبة:

آليت أبكي بعد توبة هالكا ... أخا الحرب إن دارت عليه الدوائر

لعمرك ما بالموت عار على الفتى ... إذا لم تصبه في الحياة المعاير

وما أحد حتى وإن عاش سالمًا ... بأخلد ممن غيبته المقابر

وكل شباب أو جديد إلى بلى ... وكل امرئ يوما إلى الله صائر

وكل قريني ألفة لتفرق ... شتاتا و إن ضنا وطال التعاشر

فلا يبعدنك الله ياتوب هالكا ... أخا الحرب إن دارت عليك الدوائر

وكان حب توبة لليلى عفيفا وقد شهدت بذلك ليلى عند سؤال الحجاج فقالت لم يكن منه إلا مجرد الزيارة.

يقول توبة في حب ليلى:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت ... على، و دونى جندل وصفائح

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا ... إليها صدى من جانب القبر صائح

و أغبط من ليلى بما لا أناله ... ألا كل ما قرت به العين صالح

ويقول أيضًا:

كأن القلب ليلة قيل: يغدى ... بليلى العامرية أو يراح

قطاة غرها شرك فباتت ... تجاذبه وقد علق الجناح

فلا في الليل نامت واطمأنت ... ولا في الصبح كان لها براح

جميل بن معمر صاحب بثينة :

ورق الشعر في غزل جميل بن معمر و نال قبولا في أوساط الأدب والشباب وكان يحب بنت عمه بثينة و هو أبو عمرو جميل بن معمر من بنى عذرة من قضاعة معد و أمه جذامية من اليمن ولد نحو ٤٠هـ في وادى القرى من شمالى الحجاز و على مقربة من المدينة ونشأ هناك ، تعلق بابنة عمه بثينة وتعلقت به فخطبها إلى أبيها و لكنه رده و زاد ولع جميل ببثينة فجعل يقول فيها الشعر ، و شكا أهلها إلى الوالى فتوعده ، فهرب جميل إلى أخواله باليمن ، وتزوجت بثينة برجل من أسرتها و ظل جميل يقول الشعر فيها و يزورها فتوعده الوالى فذهب إلى مصر و توفى هناك في ٨٢هـ .

جميل شاعر فصيح مقدم عند النقاد على جميع معاصريه من شعراء الغزل وشعره رقيق سهل التراكيب واضح المعانى ، وشعره كله في النسيب سوى قطعة أو قطعتين ، يقول جميل بن معمر في حبه لبثينة :

ألا ليت ريعان الشباب جديد ودهرًا تولى ، يابثين ، يعود

و يقول :

ألا ليت شعرى ، هل أبيتن ليلة بوادى القرى؟ إنى إذن لسعيد
وقد تلتقى الأهواء من بعد يأسة وقد تطلب الحاجات وهى بعيد
يموت الهوى منى إذا ما لقيتها و يحيا إذا فارقتها فيعود
يقولون ، جاهد يا جميل بغزوة وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد
علقت الهوى منها وليدًا ، فلم يزل إلى اليوم ينمو حبها ويزيد
فما ذكر الخلان إلا ذكرتها ولا البخيل إلا قلت : سوف تجود

و يقول :

وإني لأرضى من بثينة بالـــذى ... لو أبصره الواشى لقرت بلابله

بلا ، وبألا أستطيع ، وبـــــالمنى ... وبالأمل المرجو قد خاب آمله

و بالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضى ... أواخره-لانلتقى- وأوائلـــه

كثير بن عبدالرحمن صاحب عزة :

ونال شعر كثير بن عبدالرحمن أيضًا قبولا واشتهارًا في هذا النوع العذرى الرقيق من الغزل ، وهو أبو صخر كثير بن عبدالرحمن بن الأسودبن عامر من خزاعة ، ولد في بيسان بين المدينة وخيبر نحو ٤٥ هـ ومات أبوه صغيرًا فكفله عمه فكان يرعى غنما لعمه ، واعتنق مذهب الكيسانية غلاة الشيعة ينتسبون إلى المختار بن أبى عبيد الثقفى ، ويزعمون أن محمد بن الحنفية لم يمت و أنه موجود في جبل رضوى ، وعشق كثير في صباه عزة بنت جميل بن وقاص من حاجب من ضمرة ، ولذلك يقال لعزة الحاجبية والضمرية و أحب كثير عزة وهى صغيرة و كانت حميراء حلوة الحديث .

وكثير بن عبدالرحمن شاعر مكثر من فحول الشعراء من الطبقة الثانية من الإسلاميين بعد جرير و الفرزدق وهو أشعر من كبار شعراء عصره عند أهل الحجاز.

وهو شاعر بدوى الأسلوب يجيد الغزل والوصف والمديح ، توفى في المدينة ١٠٥هـ و في الغزل يقول :

و ما كنت أدرى قبل عزة ما البكا ... ولا موجعات القلب حتى تولت

وكانت لقطع الحبل بينى وبينها ... كنـاذرة نـذرًا فـأوفت وحلـت

فقلت لها: ياعز ، كل مصيبـــــة إذا وطنت -يوما-لها النفس ذلت

ولم يلق إنسان من الحب ميعــة تعــم ولا غمـــاء إلا تجلـــت

كأنى أنادى صخرة، حين أعرضت من الصم لو تمشى بها العصم زلت

صفوحًا فما تلقاك إلا بخيلـــة فمن مل منها ذلك الوصل ملت

فما أنصفت، أما النساء فبغضت إلى، وأمـــا بـــالنوال فضنـــت

يكلفها الغيران شتمى، وما بهـــا هوانى ولكن للميلك استذلت

هنيئًا مريئًـــا- غير داء مخامر- لعزة من أعراضنا ما استحلت

أسيئ بنـــا أو أحسنى ، لاملومة لدينـــا ولا مقليـــة إن تقلـــت

فما أنا بـــــالداعى لعزة بالجوى ولاشامت إن نعل عزة زلت

فلا يحسب الواشون أن صبابتى بعزة كانت غمرة فتجلت

فوالله ثم الله مـــاحل قبلها ولا بعدها من خلة حيث حلت

وإنى وتهيـــامى بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخـــلت

لكا المرتجى ظل الغمامة كلما تبؤا منها للمقيل اضمحلت

الغـــزل الإباحى :

وفي جانب آخر تعدى شعر الغزل لدى عدد من شعراء هذا العهد الحدود المباحة فتحدثوا في شعرهم عن حديث النفس والهوى والرغبات المحظورة وسبق في هذا النوع من الشعر وليد بن يزيد الخليفة الأموى والأحوص، وعمر بن أبى ربيعة .

عمر بن أبى ربيعة :

أما عمر بن أبى ربيعة فقد اختط في الغزل مسلكا خاصًا طريفًا وهو

الوصف والحوار فامتاز بذلك أسلوبه بمنهج غزلي جديد .

وهو أبو الخطاب و أبو حفص عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة حذيفة ابن المغيرة بن عمرو بن مخزوم من قريش ، ولد في المدينة في الليلة التي استشهد فيها عمر بن الخطاب ﷺ في ٢٦/١٢/٢٣هـ ولقد سمي عمر باسمه وكني أيضًا أبا حفص وأبا خطاب .

نشأ في المدينة في أسرة غنية غير محتاجة إلى طلب الرزق فوفر وقته على التمتع بالنعيم والتنقل بين الحجاز واليمن والعراق والشام ، و كانت له صناعة للنسيج والتجارة به وشب عمر مثقفًا يعرف العلوم التي كانت مألوفة في عصره من تفسير و حديث و فقه و أدب و كان يعرف القراءة و الكتابة، يظهر من ديوان شعر عمر أنه قضى قسمًا كبيرًا من عمره منصرفًا إلى اللهو ومشتغلا بالتعرف إلى النساء الجميلات المشهورات .

وقد أشاع خوضه في ذكر النساء والحديث عن مغازلتهن ، الأمور التي كانت الآداب والأخلاق تفرض عدم إثارتها فاستحق الشاعر سخط المحافظين وأهل الوقار من بني قومه ونفى الشاعر إلى جزيرة وهلك في البحر الأحمر ولم يعد إلا بعد ما أقسم أن يقلع عن صبوته و قد بر بقسمه ، توفي في سنة ٩٣هـ

عمر أشهر شعراء الغزل ومن أكابرهم ، لم يكن في الحجاز من يتقدم جميل بن معمر وعمر بن أبي ربيعة في النسيب و كان عمر يميل إلى تخيير الألفاظ الفصيحة .

و في شعر عمر شئ من الصناعة اللفظية غير مقصودة و لا بارعة و كان صادقًا في التعبير عن نفسه عذب الشعر ، و القصص و الحوار الصحيح

خاصتان بارزتان في شعر عمر وهما في الغزل خاصة ، وعمر قصر شعره كله في الغزل و كل قصيدة عمر موضوع تام في نفسه .

وأشهر قصائد عمر و أحسنها وأصدقها تمثيلا لطريقته قصيدته الرائية :

وفيها الوصف و الحوار الغزلي ، يقول عمر بن أبي ربيعة .

ألكنى إليها بالسلام فإننى ... يشهر إلامى بها و ينكر
بآية ما قالت غداة لقيتها ... بمدفع أكنان ، أهذا المشهر
قفى فانظرى، أسماء هل تعرفينه ... أهذا المغيرى الذى كان يذكر ؟
أهذا الذى أطريت نعتا فلم أكن ... وعيشك، أنساه إلي يوم أقبر
فقالت : نعم،لا شك غير لونه ... سرى الليل يحيى نصه والتهجر
لئن كان إياه لقد حال بعدنا ... عن العهد، و الإنسان قد يتغير
رأت رجلا إما إذا الشمس عارضت ... فيضحى و إما بالعشى فيخضر
أخا سفر جواب أرض تقاذفت ... به فلوات فهو أشعث أغبر
قليلا على ظهر المطية ظله ... سوى ما نفى عنه الرداء المحبر
وأعجبها من عيشها ظل غرفة ... وريان ملتف الحدائق أخضر
و وال كفاها كل شئ يهمها ... فليست لشئ آخر الليل تسهر

ويقول أيضًا :

وبت أناجى النفس أين خباؤها ... وكيف لنا آتى من الأمر مصدر
فدل عليها القلب ريا عرفتها ... لها وهوى النفس الذى كاد يظهر
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت ... مصابيح شبت بالعشاء وأنور
و غابت قمير كنت أهوى غيوبه ... و روح رعيان ونوم سمر

و خفض عنى الصوت أقبلت مشية الحباب وشخصى خشية الحى أزور

فحييت إذ فأجاتها فتـــولهت وكـادت بمكنـون التحيـة تجهـر

وقالت : وعضت بالبنان:فضحتنى وأنـت امرؤ ميسور أمـرك أعسـر

أرأيتك إذ هنا عليك ، ألم تخف رقيبًـا؟ وحـولى مـن عـدوك حضـر

فو الله ماأدرى، أتعجيل حاجة سربت بك، أم قد نام من كنت تحذر

فقلت لها، بل قادنى الشوق والهوى إليك وما نفس من النـاس تشعر

فقالت ولانت وأفرغ روعهـــا كلاك بحـفـظ ربـــك المتـــكبر

الغـــــزل العام :

وكـان ذلك بالإضافـة إلى الغزل العـام الذى قـدم فيـه الشعراء شعرًا رقيقًا جزلا ، و أجادوا إجادة في أسلوب متلائم مع حياة هذا العصر الراقى ، ولقد اشتهر فيه من الشعراء عدى بن الرقاع العاملى وذو الرمة والعرجى وعروة ابن أذينة .

و أما عدى بن الرقاع العاملى، فهو أبو داود عدى بن زيـد بـن مـالك ابن عدى الرقاع وكان أبرص و كان من أهل دمشق منقطعًا إلى بنى أمية ثم إلى الوليد بن عبدالملك خاصة .

وكـان عدى شاعرًا مقدمًا عند بنى أمية مداحًا لهم وهو من حـاضرة الشعراء لا من باديتهم ، و كان يعنى بتنقيح شعره و هو حسن التشبيه جيد القول في الوصف و في الغزل مع شئ من المجون و كان يحسن المديح والهجاء توفي في نحو سنة ٩٦هجرية .

يقول عدى بن الرقاع العاملى :

ومما شجانى أننى كنت نائمًـــا أعلـل مـن بـرْد الكـرى بالتنسـم
إلى أن بكت ورقاء في غصن أيكة تـــردد مبكاهـــا بحســـن الـــترنم
فلو قبل مبكاها بكيت صبـــابة بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبـــلى فهاج لى البكاء بكاهـــــا، فقلت الفضل للمتقدم

أما ذوالرمة ! فهو أبو الحارث غيلان بن عقبة من بنى عدى بن عبد مناة بن أد ، و أمه امرأة من بنى أسد يقال لها ظبية وسمى ذا الرمة(الحبل القصير) لأنه وصف وتدًا قديم العهد لا تزال عليه قطعة من الحبل وتهرأت أيضًا، ولد سنة ٧٧ هجرية و نشأ في البادية و لكنه كان كثير التردد إلى الكوفة والبصرة ، وقد ذكروا في صفته أنه كان قصيرًا بخيلا أسود دميمًا على أنه كان فطنًا خبيرًا بالأمور فصيحًا يخط و يقرأ و كان رصينًا عفيفًا تقيًا و كان يعلم الكتابة والقراءة في البادية .

أحب ذو الرمة مية بنت مقاتل بن طلبة المنقرى و كانت على جانب من الجمال ولكنها كانت متقدمة السن و لقد تغزل بها ذو الرمةعشرين سنة من غير أن ينال منها منالا ، وأحب امرأة شابة اسمها خرقاء العامرية و لم يطل ذلك ، وتوفى في ١١٧ هجرية .

و ذوالرمة شاعر مكثر مطيل مجيد مشهور و شعره متفاوت في الجودة و هو بدوى الشعر و كان يكره نفسه عليه و علماء العربية يهتمون بشعره لما فيه من الكلمات الغريبة والكلمات النادرة في الاستعمال.

يقول ذو الرمة :

وقفت على ربع لميـــــة ناقتى فما زلت أبكى عنده و أخاطبه
فيالك من خد أسيل ومنطـــق رخيم ومـن خلـق تعلـل جادبـه

ألا لا أرى مثل الهوى داء مسلم كريم و لا مثل الهوى ليم صاحبه

و يقول:

إذا هبت الأرياح من نحو جانب به أهل مى هاج شوقى هبوبها

هوى تذرف العينان منه و إنما هوى كل نفس حيث حل حبيبها

وقال أيضًا :

لها بشر مثل الحرير و منطق رخيم الحواشى لا هراء ولا نزر

وعينان قال الله كونا فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

وعروة بن أذينة اسمه يحيى بن مالك أحد بنى ليث بن بكر بن عبد مناة ويكنى عروة بن أذينة أبا عامر و هو شاعر غزل مقدم من شعراء المدينة وهو معدود في الفقهاء والمحدثين روى عنه مالك بن أنس و هو القائل:

لقد علمت وما الاسراف من خلقى أن الذى هو رزقى سوف يأتينى

أسعى إليه فيعينى تطلبه ولو جلست أتانى لا يعينى

من أبيات طويلة و لها حكاية بليغة بينه و بين هشام بن عبدالملك تطلب من كتب الأدب، وله غزل رقيق و رثاء بارع و حكمة كثيرة توفى في سنة ١٣٠ هـ

يقول عروة بن أذينة :

إن التى زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها

بيضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة ، فأدقها وأجلها

حجبت تحيتها فقلت لصاحبى ما كان أكثرها لنا وأقلها

وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

ويقول أبو صخر الهذلى : وهو عبدالله بن مسلم السهمى الهذلى و كان

من أنصار بنى أمية و كان شاعراً غزلا رقيقًا فصيح الألفاظ سهل التراكيب واضح المعانى ، على شعره أثر الإسلام والقرآن و كانت له قدرة في النثر أيضًا .

أما و الذى أبكى وأضحك و الذى ... أمات وأحيا و الذى أمره الأمر
لقد تركتنى أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما الذعر
فيا هجر ليلى قد بلغت بى المدى ... وزدت على ما لم يكن بلغ الهجر
ويا حبها زدنى جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام، موعدك الحشر
عجبت لسعى الدهر بينى وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
و إننى لآتيها و في النفس هجرها ... بتاتًا لأخرى الدهر ما وضح الفجر
فماهو إلا أن أراها فجاءة ... فأبهت لا عرف لدى ولا نكر

وقال نصيب الأكبر: و هو نصيب بن رباح مولى عبدالعزيز بن مروان ، كان شاعرًا فحلا فصيحًا مقدمًا في النسيب والمديح ، عفيفًا لم ينسب بامرأة قط ، وكان كبير النفس ذا مكانة عند الملوك ، يجيد مديحهم و مراثيهم وشهد له أهل وقته بالإجادة والتقدم ، وله شعر سهل ممتنع سائغ عذب رائع كأنه اللؤلو الرطب ، و كان عبدًا رقيقًا نوبيًا شديد السواد عاش على الرق زماناً ثم كاتب على نفسه فصار حرًا توفي في سنة ١٠٨هـ .

لقد هتفت في جنح ليل حمامة ... على فنن وهنا وإنى لنائم
فقلت اعتذارًا عند ذاك وإننى ... لنفسى مما قد رأته للائم
أأزعم أنى هائم ذو صبابة ... لسعدى ولا أبكى وتبكى الحمائم
كذبت وبيت الله لو كنت عاشقًا ... لما سبقتنى بالبكاء الحمائم

الفصل الثانى

أغـــراض أخـــرى

شعر السياسة والدين :

ولقد برز في شعر هذا العهد نوع جديد ، و هو شعر السياسة والدين و ذلك بتأثير أسباب ذكرناها فيما سبق فكان في الشعراء من يوالون علي بن أبى طالب ﷺ ويمزجون أفكارهم السياسية بالروح الدينية و كان فيهم من يخضعون لعقيدة الخوارج و يمزجون أيضًا السياسة بالروح الدينية و كان فيهم من يوالون بنى أمية في سياستهم ورأيهم في الحكم والخلافة ، و كان فيهم أيضًا من يوالى عبدالله بن الزبير ﷺ وهو الذى حكم الحجاز لمدة من الزمن معارضًا للحكومة الأموية .

ومن فحول الشعراء الموالين لعلى بن أبى طالب ﷺ الكميت بن زيد الأسدى و هو يقول في مدح آل البيت .

طربت، وما شوقاً إلى البيض أطرب ... ولا لعبًا منى، و ذو الشوق يلعب

إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نابنى أتقرب

بنى هاشم رهط النبى ، فإننى ... بهم و لهم أرضى مرارًا و أغضب

خفضت لهم منى جناح مودة ... إلى كنف عطفاه أهل و مرحب

إليكم ذوى آل النبى تطلعت نوازع من قلبى ظماء و ألبب
فإننى عن الأمر الذى تكرهونه بقولى وفعلى- ما استطعت-لأجنب
يشيرون بالأيدى إلى، وقولهم ألا خاب هذا ، والمشيرون أخيب
فطائفة قد كفرتنى بحبكم وطائفة قالوا: مسيئ ومذنب
فما ساءنى تكفير هاتيك منهم ولا عيب هاتيك التى هى أعيب

ومنهم كثير بن عبدالرحمن ، وهو يقول

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان و بر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب، لا يرى، منهم زماناً برضوى عنده عسل وماء

من فحول الشعراء الخاضعين لفكرة الخوارج الطرماح بن الحكيم و هو يقول تحت عاطفته الدينية الخارجية في الحماسة :

و إنى لمقتاد جوادى فقاذف به وبنفسى العام، إحدى المقاذف
لأكسب مالا أو أؤول إلى غنى من الله يكفينى عدات الخلائف
فيا رب، إن حانت وفاتى فلا تكن على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن قبرى بطن نسر مقيله بجو السماء في نسور عواكف
وأمسى شهيدًا ثاويًا في عصابة يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم تقى الله نزالون عند التزاحف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف

أما الذين ناصروا بنى أمية في فكرهم السياسى فكان عددهم كبيرًا

لاتساع دولتهم وامتدادها لمدة طويلة ، وانتقل إلى موالاتهم عدد من الشعراء الذين كانوا ضدهم في بدء الأمر ، ومن نماذج هذا النوع من الشعر ما يلى :

يقول كعب بن جعيل التغلبى في تأييد بنى أمية :

أرى الشام تكره ملك العـراق ... و أهل العـراق لهـم كارهونـا
و كل لصـــــــاحبه مبغض ... يـرى كل مـا كـان ذاك دينـا
إذا ما رمونا رمينـــــــاهم ... دنـاهم مثـل مـا يفرضونـا
و قالوا : على إمام لنـــــا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا: نرى أن تدينوا لنـــا ... فقلنا لهـم : لا نـرى أن ندينـا
ومن دون ذلك خرط القتـاد ... وطعـن وضـرب يقـر العيونـا
و كل يسر بما عنـــــــده ... يرى غث ما في يديه سمينا
و ما في على - لمســـتعتب ... مقال سـوى ضمه المحدثينا
وإيثاره اليوم أهل الذنـــوب ... ورفع القصاص عن القاتلينـا

و يقول مسكين الدارمى في ترشيح يزيد للخلافة ، و مسكين الدارمى هو ربيعة بن عامر بن أنيف من بنى دارم من تميم ، تهاجى مع الفرزدق زمنًا، ثم انصرف عن ذلك ، و هو شاعر مجيد شريف رقيق اللفظ حسن المعنى واضح الغاية ، ولكنه مقل، و هو الذى اقترح بشعره على معاوية ابن أبى سفيان رضى الله عنهما بتولية يزيد ، كانت وفاته في نحو ٩٠ هـ .

ألا ليت شعرى، ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد
إذا المنبر الغـــــــربى خلاه ربه ... فـإن أمـير المؤمنـين يزيـد
على الطائر الميمون والـجد صاعد ... لكـل أنـاس طـائر وجـدود
فلا زلت أعلى الناس كعبا ولا تزال ... وفـود تسـاميها إليك وفـود

و لا زال بيت الملك فوقك عاليا تشيد أطناب لـــــه وعمود

شعر الأدب والحكمة والحماسة:

ولمسكين الدارمي في الأدب والحكمة :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سر بعض، غير أني جماعها

يظلـــون شتى في البلاد وسرهم إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

لكل امرئ شعب من القلب فارغ وموضع نجوى لا يرام اطلاعهـا

وفي الأدب والحكمة يقول المقنع الكندى أيضًا :

والمقنع لقب غلب عليه ، واسمه محمد بن ظفر بن عمير ينتهى نسبه إلى كندة بن عفير ، و إنما لقب بالمقنع لأنه كان أجمل الناس وجهًا ، وكان يقنع وجهه لئلا تصيبه العين ، وهو شاعر مقل من شعراء عهد بنى أمية ، و كان له محل وشرف و مروءة و سؤدد في عشيرته و كان متخرقًا في عطاياه ، سمح اليد بما له لا يرد سائلا ، حتى تلف ماله في ذلك ثم إن المقنع أحب ابنة عمه فخطبها من إخوتها فرفضوا وعيروا بالفقر ، توفي في عهد عبدالملك بن مروان .

يعاتبنى في الدين قومى وإنـــما ديونى في أشياء تكسبهم حمدًا

أسد به ما قد أخلوا وضيعـــوا ثغور حقوق ما أطاقوا لها سدا

و في جفنة ما يغلق الباب دونها مكللـــة لحمًـــا مدفقـــة ثـــردا

و في فرس نهد عتيق جعلتـــــه حجابًا لبيتى ثم أخدمته عبدًا

و إن الذى بينى و بين بنـــى أبى وبين بنى عمى لمختلف جـدا

فان أكلوا لحمى وفرت لـحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجداً

و إن ضيعوا غيبى حفظت غيوبهم ... وإن هم هووا غيى هويت لهم رشدا

و إن زجروا طيرًا بنحس تمـــر بى ... زجرت لهم طيرًا تمر بهم سعدًا

و لا أحمل الحقد القديم عليهـــم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

لهم جل ما لى إن تتـــابع لى غنى ... وإن قـل مـا لى لم أكلفهـم رفـدا

و إنى لعبد الضيف مـــا دام نازلا ... و ما شيمة لى غيرهـــا تشبـه العبدا

وقال سعد بن ناشب: وهو شاعر إسلامى في الدولة المروانية ، من بنى مازن بن مالك بن عمرو بن تميم ، وسبب هذه الأبيات أنه كان أصاب دما فهدم بلال بن أبى بردة داره بالبصرة وحرقها وقيل إن الحجاج هو الذى هدم داره .

سأغســـل عنى العار بالسيف جالباً ... علـى قضـاء الله مـا كـان جالبـا

وأذهل عن دارى و أجعل هدمهـا ... لعرضى من بـاقى المذمة حاجبـا

ويصغر في عينى تلادى إذا انثنت ... يمينى بإدراك الذى كنـت طالبـا

فإن تهدموا بالغدر دارى فإنهـا ... تـراث كريـم لا يبـالى العواقبـا

أخى غمرات لا يريد على الـذى ... يهم به من مفظـع الأمـر صاحبـاً

إذا هم لم تردع عزيمة همـــــه ... ولم يأت ما يأتى من الأمر هائبـاً

فيا لرزام رشحوا بي مقدمـــا ... إلى الموت خواضـا إليـه الكتائبـا

إذا هم ألقى بين عينيه عزمـــه ... ونكـب عـن ذكر العواقـب جانبـا

ولم يستشر في رأيه غير نفســه ... ولم يرض إلا قائم السيف صاحبـاً

وقال قطرى بن الفجاءة في الحماسة : وقطرى بـن الفجـاءة هـو أبـو نعامة ابن مازن بن زيد بن مناة كان من الخوارج الأزارقة و كـان قـائدًا زعيمًا لهم و كان فارسًا شجاعًا و كان خطيبًا شاعرًا ، أما شعره فكان في الحماسة

والاستهانة بالموت متين السبك شديد الأسر، أما خطبه فهى في الحث على التقوى والرغبة عن الدنيا سقط قتيلا في سنة ٧٨هـ

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرًا في مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز ... فيطوى عن أخى الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حى ... فداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم ... وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير في حياة ... إذا ما عد من سقط المتاع

الرجز:

الرجز نوع من الشعر بدأه العرب في جاهليتهم كانوا يصرعون صدوره وأعجازه على روى واحد، والرجز أقدم الأوزان العربية وأسهل أنواع الشعر وأقلها تكلفًا، ويبدو أنه كان سجعًا تطور إلى الشعر وهو بحر تفاعيله: مستفعلن مستفعلن مستفعلن - مستفعل مستفعلن مستفعلن.

وتسمى قصيدة الرجز بالأرجوزة وقد استخدمها الشعراء في عهد بنى أمية لأغراض شعرية مختلفة، واعتنى اللغويون بالرجز لاحتوائه على مادة لغوية كثيرة، واشتهر في رجز هذا العهد العجاج بن رؤبة وأبو الأغلب العجلى وأبو النجم.

ومن نماذجه ما يقوله أبو النجم الراجز في أرجوزته المشهورة التى أعجبت أهل البصيرة بالأدب العربى، يقول عنها ابن قتيبة إنها أجود أراجيز

العرب، و أبو النجم : هو الفضل(أو المفضل) بن قدامة العجلى من بنى ربيعة من بكر بن وائل ، ولد سنة ٤٠هـ وكان مسكنه في ضواحى الكوفة و كان يأوى إلى المساجد ، اتصل ببنى أمية في أيام عبد الملك ومدح الحجاج أيضًا ، وأبو النجم من رجاز الإسلام الفحول المقدمين المشهورين ، وكان مكثرًا يقول رجزًا و قصيدة فيجيد غير أن شعره متفاوت فيه الجيد والردى ، توفى سنة ١٢٠هـ .

أحمد الله الوهوب المجزل ... أعطى فلم يبخل و لم يبخل

كوم الذرى من خول المخول ... تبقلت من أول المتبقل

بين رماحى مالك ونهشل ... يدفع عنها العز جهل الجهل

حتى إذا الشمس بدت للقيل ... بالنصف من حيث غدت والمنزل

جاءت تسامى في الرعيل الأول ... والظل عن أخفافها لم يفضل

مائرة الأيدى طوال الأرجل ... يهدى بها كل نياف عندل

لو جرشن وسطها لم تحفل ... من شهوة الماء ورز معضل

الفصل الثالث

شعـــر النقـــائض

أما في الشعر الجدلى الشخصى والقبلى الذى ظهرت فيه المنازعات الشخصية والمهاترا ت الفردية والقبلية ، فلقد اشتهر فيه ونبغ نبوغًا ظاهرًا ثلاثة شعراء و هم الأخطل وجرير و الفرزدق ، و كان من الدواعى الحقيقية في هذه المناقضات خصومات فردية ، أو انتماءات قبلية مختلفة ، إنها وجدت في جو الخصومات السياسية والمذهبية السائدة في هذا العهد حافزًا لظهورها فقد كان الأخطل تغلبيًا ومسيحيًا ، وقبيلة تغلب من ربيعة و قبائل ربيعة كانت تتعصب ضد قبائل مضر و اليمن ، و كانت مسيحية الأخطل تحرك عصبية المعارضة للمسلمين ، وهى التى ساعدته في قيامه بهجاء للأنصار رضى الله عنهم ،أما تائيده لبنى أمية فلكونهم حاكمين يملكون النفع و الضرر.

وكان الفرزدق و جرير من قبيلة تميم من أسرتين مختلفتين ، وكانت تميم قبيلة مضرية تميل إلى بنى هاشم لكون الرسول ﷺ منهم و لكن جريرًا مال إلى رجال الحكم من بنى أمية ليستعين بذلك في دعم مكانته ، و هو من أسرة ضعيفة المركز في تميم ، بالنسبة إلى أسرة الفرزدق ، ذات مآثر معروفة لأعيانها وبالاضافة إلى الفوارق النسبية ، هذا وكانت مصالح و أحداث فردية أيضًا تعمل في تسعير حرب المناقضات التى اتسعت فشملت عشرات من

شعراء هذا العصر ، وكانت تعمل فيها حساسيات مختلفة .

وكان جرير و الفرزدق بطلى هذا القسم من الشعر ، و انقسم إليهما جميع شعراء عصرهما ، فمنهم من كان يناصر جريرًا و يعارض خصومه ، ومنهم من كان يعارضه ويناصر الفرزدق ، وأخذ هذان الشاعران وأتباعهما من ورائهما يترامون بالشعر فيما بينهما ، ويتفاخرون و يتهاجون ، وأبدوا في ذلك مهارتهم الأدبية ، فحصل منه شعر قوى كثير ، ولئن كان في باب المناقضات بعض السوء من مهاترات غير لائقة فإنها كانت سببًا لإدرار القرائح وإنتاج أدب شعرى زاخر بليغ أيضًا ، ولقد فاق في بعض نواحيه الفرزدق وبرز على خصمه جرير ، و فاق جرير في أخراها على خصمه الفرزدق وخصومه الآخرين ، وأكثر شعرهما في المناقضات وقد جمع هذا الشعر في كتاب وطبع على انفراد :

إقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التى مطلعها :

إن الذى سمك السماء بنى لنا بيتًا دعائمه أعز و أطول

إلى أن يقول :

بيتًا زرارة محتب بفنائه ومجاشع و أبو الفوارس نهشل

لا يحتبى بفناء بيتك مثلهم أبدًا إذا عد الفعال الأفضل

فيجيبه جرير في نقيضة لها :

أخزى الذى سمك السماء مجاشعًا وبنى بناءك في الحضيض الأسفل

بيتًا يحمم قينكم بفنائه دنسًا مقاعده خبيث المدخل

قتل الزبير وأنت عاقد حبوة تبًا لحبوتك التى لم تحلل

ويقول الفرزدق:

حلل الملوك لباسنا في أهلنا والسابغات إلى الوغى تتسربل

فيجيبه جرير :

لا تذكروا حلل الملوك فإنكم ... بعد الزبير كحائض لم تغسل

ويقول الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزانـــة ... وتخالنا جنا إذا مـا نجهـل

فادفع بكفك إن أردت بنـاءنا ... ثهلان ذا الهضبات هل يتحلل

خالى الذى غصب الملوك نفوسهم ... وإليه كان حبـاء جفنة ينقل

إنا لنضرب رأس كل قبيلـــة ... وأبوك خلف أتانـــه يتقمل

فيجيبه جرير :

كان الفرزدق إذ يعوذ بخـاله ... مثل الذليل يعوذ تحت القرمل

وافخر بضبة إن أمك منهـم ... ليس ابن ضبة بـالمعم المخول

أبلغ بنى وقبان أن حلومهـم ... خفت فلا يزنون حبة خـردل

أعددت للشعراء سما ناقعـا ... فسقيت آخرهم بكـأس الأول

لما وضعت على الفرزدق ميسمى ... وضعى البعيث جدعت أنف الأخطل

ويقول في الأخطل و كان يسمى بدويل كذلك ومعناه الخنزير :

بكى دويل لا يرمه الله دمعـه ... ألا إنما يبكى من الذل دويـل

و يقول الأخطل في مدح نفسه وهجاء جرير :

إنـا نجعل بالعبيط لضيفنا ... قبـل العيـال ونقتـل الأبطـالا

أبنى كليـب، إن عمى اللذا ... قتلا الملوك وفككـا الأغلالا

ويقول :

ولقد جشمت، جرير أمرًا عـاجزًا ... و وهبت سوءة أمك الجهـالا

فانعق لضأنك، يا جرير، فـإنما ... منتـك نفسك في الخـلاء ضـلالا

منتك نفسك أن تكون كـــدارم أو أن تـوازن حاجبـا وعقـالا

وإذا وضعت أباك في ميـــزانهم قفزت حديدتـه إليـك فشـالا

و يقول جرير:

ياذا الغباوة إن بشرًا قـد قضى ألا تجـوز حكومـة النشـوان

فدعوا الحكومة لستم من أهلها إن الحكومـة في بنـى شـيبان

قتلوا كليبكم بلحقة جـارهـــم ياخزر تغلب لستم بهجـــان

هؤلاء الشعراء الثلاثة أعظم شعراء عصرهم و قد قال أبو عبيدة "أجمع الناس على أن أشعرهم في الإسلام ثلاثة : الفرزدق و جرير والأخطل و ذلك أنهم أعطوا حظًا في الشعر لم يعطه أحد غيرهم في الإسلام ، مدحوا قوما فرفعوهم ، وذموا قومًا فوضعوهم ، وهجاهم قوم فردوهم وأفحموهم ، وهجاهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عنهم وعن الرد عليهم فأسقطوهم " و قد شغلوا أذهان الناس في عصرهم و كان شعرهم زادًا أدبيًا ثمينًا .

الأخطـــــل

أما الأخطل فهو أبو مالك غياث بن غوث التغلبى كان من قبيلة تغلب، وهى قبيلة ذات شجاعة و حمية و فخر و عرفت في الجاهلية و في الإسلام بهذه الخصائص وامتاز تاريخها بأعمال متسمة بذلك ، فورث الأخطل الحمية والاعتزاز بنفسه منها ، وكان نصرانيًا فلم يكن ملتزما بالآداب الإسلامية ولم يكن يراعيها إلا في الحدود التى تفرض عليها السياسة و ولاءه للأمويين ، فقد كان مواليا للأمويين يؤيدهم و يمدحهم و ينال منهم الجزاء ،و قد قام بالطعن على السادة الأنصار لما وقعت مغاضبة بين يزيد بن معاوية ولى

العهد وعبدالرحمن بن سيدنا حسان بن ثابت الأنصارى ﷺ فاستحق سخط المسلمين وكراهيتهم له لتعرضه لعرض رجل من الكرماء الأجلاء من المسلمين ، وكان مجاهرًا بشرب الخمر وقد يأتى بما يكرهه المجتمع الإسلامي ويتفق مع ميوله الإباحية .

ومع ذلك كان شاعرًا قوى الأسلوب ، يمتاز بإجادة المدح ونعت الخمر وقلة البذاء في الهجاء وسلامة قصائده الطوال من اللغط والسقط .

ولد في الجزيرة الفراتية في العراق بين بنى قومه وعاش مترددًا إلى دمشق عاصمة الأمويين ، وتعرض الأخطل لجرير في المخاصمات التى جرت بينه وبين الفرزدق فرد عليه جرير ردًا أسكته ، وذلك لأن الأخطل كان قد كبرت سنه حينذاك وكان جرير فتيًا قويًا ، توفي بالبصرة في ٩٥هـ .

نموذج من شعره

قال يمدح عبدالملك بن مروان :

نفسى فداء أمير المؤمنين إذا ... أبدى النواجذ يوما عارم ذكر

الخائض الغمرة الميمون طائره ... خليفة الله يستسقى به المطر

في نبعة من قريش يعصمون بها ... ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر

حشد على الحق عيافو الخنا أنف ... إذا ألمت بهم مكروهة صبروا

لا يستقل ذوو الأضغان حربهم ... ولا يبين في عيدانهم خور

شمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأوسع الناس أحلاما إذا قدروا

هم الذين يبارون الرياح إذا ... قل الطعام على العافين أوقتروا

بنى أمية نعماكم مجللة ... تمت فلا منة فيها ولا كدر

وقال يهجو الأنصار :

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته ... كـالجحش حمـارة وحمـار

لعن الالـه من اليهود عصابة ... بـالجزع بـين صليصـل وصـرار

قوم إذا هـدر العصير رأيتهم ... حمـرًا عيونهـم مـن المسـطار

خلوا المكارم لستـم من أهلها ... وخذوا مساحيكم بنى النجـار

ذهبت قريش بالمفـاخر كلها ... واللـؤم تحـت عمـائم الأنصـار

ومن قوله :

والناس همهم الحيـاة ولا أرى ... طول الحيـاة يزيـد غـير خبـال

و إذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخرًا يكون كصالح الأعمـال

الفـــرزدق

هو أبو فراس همام بن غالب التميمى ولد و نشأ في البصرة فدرج في بيئة الأدب و شب في الفصاحة وبلاغة القول و اشتهر بشعره القوى الفخم المشتمل على اللفظ الجزل والأسلوب المؤثر.

يعد الفرزدق من أكبر شعراء عصره بل كان واحدًا من الشاعرين الفريدين في عصرهما ، هو و جرير ، كان كلاهما من قبيلة تميم ، غير أن أسرتيهما اختلفتا في المكانة والشهرة .

كان الفرزدق من أسرة ذات شهرة وصيت في خصائص الفتوة والمروءة العربيتين ، فكان يكثر ذكرها للاحتجاج على خصمه جرير و كان يعد مآثر قومه و أسرته فيحج بها خصمه ، تخاصم هو و جرير و جرت بينهما مناقضات شعرية استرعت انتباه أهل الذوق الأدبى في عصرهما وانقسم

الناس بين فريقين فريق الفرزدق و فريق جرير ، وقيل شعر كثير و رائع في هذه المناقضات ، و هي و إن كانت مهاترات غير حسنة ولكنها أضافت إلى ثروة الشعر العربي البليغ و أثرت على المادة الشعرية لذلك العهد الشعري .

ومن أبرز سمات أسلوب الفرزدق الفخامة و استعمال الكلم الغريب وذكر أيام العرب وأنسابهم واحتذاء البادين في أساليبهم و قد غلب شعره في الفخر و هي طبيعة شعرية غالبة في العرب ولذلك أعجب به الرواة و فضله النحاة و قالوا لولا الفرزدق لذهب ثلث العربية .

كان الفرزدق ولوعًا بتعداد مآثر آبائه حتى أمام الخلفاء و كان غير ملتزم بالنزاهة في ذكر الفجور و الأخلاق البذيئة ولكنه مع ذلك يذكر أهل الدين ، ويظهر حبه لهم ويخص بذلك آل بيت الرسول ﷺ وله شعر قوي بليغ في ذلك ، وله شعر في مخاطبة الشيطان والتذييد به و في ذكر الذئب والمحاورة معه .

عاش الفرزدق في البصرة وملأ أسماع الناس بجيد قصائده ، و توفي في السنة العاشرة التي توفي فيها جرير أيضًا بعده بسبعة أشهر ، وبموتهما انتهى العهد الشعري العربي الأصيل واضمحلت سمتها العربية بعده لامتزاج الخصائص الشعرية الأصيلة بالخصائص الشعرية الوافدة ، و توفي في ١١٠هـ .

نموذج من شعره

إذا اغبر آفاق السماء وكشفت ... بيوتا وراء الحي نكباء حرجف

و أصبح مبيض الصقيع كأنه ... على سروات النيب قطن مندف

ترى جارنا فينا يجير وإن جنى ... فلا هو مما ينطف الجار ينطف

و كنا إذا نامت كليب عن القرى إلى الضيف نمشي بالعبيط ونلحف

لنا العزة القعساء والعدد الـذى عليه إذا عد الحصى يتحلف

ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

وإنك إذ تسعى لتدرك شأونـا لأنت المعنى يا جرير المكلف

و قال ايضًا :

ومستمنح طاوى المصير كأنمـا يساوره من شدة الجوع أولق

دعوت بحمراء الفروع كأنهـا ذرى راية في جانب الجو تخفق

وإنى سفيه النار للمبتغى القرى و إنى حليم الكلب للضيف يطرق

إذا مت فابكينى بما أنا أهلـه فكل جميل قلت في يصدق

وكم قائل مات الفرزدق والندى وقائلة مات الندى و الفرزدق

و من قوله في مدح على بن الحسين :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهـم هذا التقى النقى الطاهر العلم

وليس قولك (من هذا) بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم

إذا رأته قريش قال قائلهـا إلى مكارم هذا ينتهى الكرم

يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلم إلا حين يبتسم

يكاد يمسكه عرفان راحتـه ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

ينشق نور الهدى عن نور غرتـه كالشمس ينجاب عن اشراقها القتم

من معشر حبهم دين و بغضهم كفر و قربهم منجى و معتصم

ومن أبياته السائرة قوله :

فيا عجبا حتى كليب تسبنى كان أباها نهشل أو مجاشع

وقوله :

وكنا إذا الجبـــــار صعر خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع

و قوله :

ترجى ربيع أن يجيـئ صغارها بخير و قد أعيا ربيعًا كبارها

و قوله :

قوارص تأتينى ويحتقرونهـــا وقد يملأ القطر الاناء فيفعم ؟

و قوله :

أحلامنا تزن الجبال رزانـــة و تخالنـا جنـا إذا مـا نجهـل

و قوله :

ترى كل مظلوم إلينا فـــراره و يهرب منـــا جهده كل ظالم

جرير (م ١١٠هـ)

أبو حرزة جرير بن عطية الخطفى التميمى ولد باليمامة و نشأ بالبادية فشب فصيح اللسان صحيح الوجدان مطبوع القريحة على الشعر ، كان من أكبر شعراء عصره ، بل كان واحدًا من الشاعرين الفريدين في عصرهما هو و الفرزدق و كان كلاهما من قبيلة تميم ، غير أن أسرتيهما اختلفتا في المكانة والشهرة ، ولد جرير في أسرة لم تشتهر بالمآثر و لكنه امتاز بنفسه في القريحة والذكاء واستغلهما في الشعر ، فحاز القبول من أهل الذوق الأدبى والصيت البعيد حتى عدته جماعة من هواة الأدب في عصره أكبر

شعراء عصره، جرت بينه وبين البعيث مخاصمة أفضت إلى مناقضات شعرية بينه وبين شعراء عصره كان أعظمهم و أقواهم الفرزدق .

ومن أبرز سمات أسلوبه براءته من خبث الأخطل وسكره ومن جفاء الفرزدق و فخره ، وامتاز برقة الشعور و طلاوة الأسلوب وحلاوة الغزل و مرارة الهجاء وإجادة الرثاء و حسن التصرف في جميع فنون الشعر .

ولد و نشأ جرير في اليمامة وانتقل إلى البصرة وما لبث الشاعران : هو والفرزدق أن تخاصما فبدأت القصائد التي ينقض بعضها البعض الآخر حتى حصلت مجموعة منها سميت بالنقائض و قد أضافت هذه القصائد إلى ثروة الشعر العربي حيث انها نتائج سعي أدبي شعري بليغ ، فقد بذل كل واحد من الشاعرين منتهى جهدهما في المحاجة والتغلب على الآخر فوجد بذلك شعر قوي بليغ رائع .

توفي جرير بعد الفرزدق بسبعة أشهر في سنة ١١٠ هـ أيضًا و دفن باليمامة فكانت سنة نهاية عهد أدبي لم ينقطع منذ الجاهلية في الخصائص العربية الحقيقية التي تغيرت بعد ذلك لامتزاج الخصائص الوافدة من آداب الشعوب المحيطة بالجزيرة العربية .

نموذج من شعره

قال يهجو الفرزدق :

لقد ولدت أم الفرزدق مقرفا ... فجاءت بوزار قصير القوادم

يوصل حبليه إذا جن ليله ... ليرقى إلى جاراته بالسلالم

تدليت تزني من ثمانين قامة ... وقصرت عن باع العلى والمكارم

هو الرجس يا أهل المدينة فاحذروا مداخل رجس بالخبيثات عالم
لقد كان إخراج الفرزدق عنكم طهورًا لما بين المصلى وراقم

ومن جيد قوله فيه :

تعالوا نحاكمكم و في الحق مقنع إلى الغر من أهل البطاح الأكارم
فإن قريش الحق لم تتبع الهوى ولم يرهبوا في الله لومة لائم
أذكركم بالله من ينهل القنا ويضرب كبش الجحفل المتراكم ؟
وكنتم لنا الأتباع في كل موقف و ريش الذنابى تابع للقوادم
إذا عدت الأيام أخزيت دارمًا وتخزيك يا ابن القين أيام دارم
وما زادني بعد المدى نقض مرة ولارق عظمى بالضروس العواجم

ومن قوله يمدح عمر بن عبدالعزيز :

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا من الخليفة ما نرجو من المطر
نال الخلافة إذ كانت له قدرًا كما أتى ربه موسى على قدر
أ أذكر الجهد والبلوى التى نزلت أم نكتفى بالذى بلغت من خبرى
مازلت بعدك في دار تعرقنى قد طال بعدك إصعادى ومنحدرى
لا ينفع الحاضر المجهود باديا و لا يجود لنا باد على حضر
كم بالمواسم من شعثاء أرملة ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
يدعوك دعوة ملهوف كأن به مسا من الجن أو رزءًا من البشر
ممن يعدك تكفى فقد والده كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر

ومن أبياته التى تفرد بها قوله في الغزل :

إن العيون التى في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

وقوله في الفخر :

إذا غضبت عليك بنو تميـــــم حسبت الناس كلهم غضابا

و في الهجاء:

فغض الطرف إنـــك من نمير فـلا كعبـا بلغـت ولا كلابـا

وفي التهكم :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا أبشر بطول سلامة يـا مربـع

ومن جيد فخره قوله :

إن الذى حرم المكارم تغلبـا جعـل الخلافـة والنبـوة فينـا

مضر أبى وأبو الملوك، فهل لكم يـا خـزر تغلـب مـن أب كأبينـا

هذا ابن عمى في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينـــا

الطرماح بن حكيم

كان يكنى أبا نفر وأبا ضبينة ، ويلقب بالطرماح وهو الطرماح بن حكيم بن الحكم من بنى ثعل بن عمرو من طى ، ولد قبل الهجرة في الشام ونشأ فيها ثم إنه قدم إلى الكوفة مع جيوش المسلمين ، وهناك تلقى مذهب الشراة الأزارقة ، وقد نشأت بين الطرماح وبين الكميت صداقة عجيبة فقد كانا على طرفى النقيض من النسب والمذهب والوطن حيث أنه قحطانى وخارجى وشامى ، والكميت عدنانى وشيعى وكوفى ، ولكنهما عاشا على الصداقة ولعل وحدتهما في الشعر والأدب كانت سبب اتحادهما .

اشتغل الطرماح بالتعليم حينا وكان وقورا مالوفا لدى تلاميذه ،و كان الطرماح أنوفا لا يتكسب بالشعر و عاش فقيرا و أسن الطرماح كثيرًا ، توفي بعد سنة ١٠٠هـ .

كان الطرماح من فحول الشعراء و فصحائهم و من الخطباء ، وشعره متين كثير الغريب إلا أن شعره ليس حجة لأنه مولد فيما قيل ولأنه كان يتكلف إدخال الغريب في شعره بعد أن يسأل العلماء وأهل السواد عن الالفاظ في كلامهم .

و أكثر شعر الطرماح الحماسة والنقائض و هو بارع في الوصف

وهجاءه مؤلم ولكن فيها مبالغات و تكرارا .

نموذج من شعره

قل في شط نهروان اغتمـــاضى ... و دعانى هـوى العيـون المراض

فتطربت للصبا ثم أوقفـــــــ ... ـت رضا بالتقى و ذو البر راضى

و أرانى المليك رشدى و قد كنـ ... ـت أخـا عنجهيـة واعـتراض

غير ما ريبة سوى ريق الغـــره ... ثـم ارعويـت بعـد البيـاض

و منها :

وجرى بالذى أخاف من البين (م) ... لعـين تنـوض كـل منـاض

صيدحى الضحى كأن نســـاه ... حيث تجتث رجله في أبـاض

سوف تدنيك من لميس سبنتـا ... ة أمارت بالبول ماء الكراض

فهى قودا ء أنفجت عضداهـــا ... عن زحاليف صفصف ذى دحاض

و يقول في آخرها :

إننا معشر شمائلنا الصبـــــــ ... ـر إذا الخـوف مـال بالأحفـاض

نصر للذليل في نـــــــدوة الحى ... مرائيـب للشـأى المنهـاض

لم يفتنا بالوتر قوم وللضـــــــ ... ـيم رجـال يرضـون بالاغمـاض

فسلى الناس إن جهلت وإن شئ ... ـت قضى بيننا وبينك قـاضى

ومن قوله :

لقد زادنى حبا لنـــفسى أننى ... بغيض إلى كل امرئ غير طائل

و أنى شقى باللئـــام و لا ترى ... شـقيا بهـم إلا كريـم الشـمائل

و من قوله يهجو بنى تميم :

لو حـان ورد تميم ثم قيـــل لـهـا حوض الرسول عليه الأزد لم تـرد

لو أنزل الله وحيا أن يعذبهـــــا إن لم تعـد لقتـال الأزد لم تعـد

لا عز نصــرا مرئ أضحى له فرس على تميم يريد النصر من أحد

لو كان يخفىعلى الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو أسد

الكميت بن زيد الأسدى

ولد في الكوفة في نحو سنة ٦٠هـ ونشأ فيها معلمًا للصبيان و كان أصم لا يسمع كان متشيعًا لال البيت يمدح الهاشميين ويتعصب لمضر على اليمن ومع ذلك كانت بينه وبين الطرماح صداقة ومحبة مع أنه كان خارجيًا قحطانيًا مواليًا لبنى أمية .

و كانت حياة الكميت مليئة بالاضطراب والمتناقضات بخلاف حياة الطرماح ، وكان الكميت من الفقهاء والخطباء والشعراء عالمًا بآداب العرب ولغاتها وأخبارها وأنسابها و هو شاعر مكثر يقدر على القصائد الطوال والمقطعات القصار غير أنه يتكلف الغريب ويقصد أحيانا إلى الصناعة اللفظية و أشهر فنونه مدائحه في آل الرسول ﷺ و في بنى هاشم وتدعى الهاشميات :

وقد مدح الكميت الأمويين تكسبا ومدائحه فيهم جيدة غير أنه يمدح الهاشميين بدافع من قلبه و عن عقيدته ، توفي في سنة ١٢٦هـ .

قال الكميت بن زيد يمدح سلمة بن عبد الملك

فما غاب عن حلم ولا شهد الخنا ... ولا استعذب العوراء يوما فقالها

وتفضل أيمان الرجال شمـــاله ... كما فضلت يمنى يديه شمالها

و ما أجم المعروف من طـول كره ... و أمرا بأفعال الندى و افتعالها

ويبتذل النفس المصونة نفســه ... إذا ما رأى حقًا عليه ابتذالها

بلوناك في أهل الندى ففضلتـهم ... وباعك في الأبواع قدما فطالها

فأنت الندى في ما ينوبك والسدى ... إذا الخود عدت عقبة القدر مالها

الباب الثالث

النثـــر و رجـــاله

الفصل الأول

النثر في هذا العهد وأعلامه

لقد كان الاهتمام بالنثر الفنى في الجاهلية قليلا لأن غالبية العرب في الجاهلية كانت بدوا وأمية ، فلم يلجأوا إلى النثر الفنى إلا في أحوال نادرة ومنها المناسبات التى اقتضت الخطابة أو كتابة عهد وعقد ، واختاروا الكلام النثرى المؤثر عند إرسال مثل واستعماله ، أو التكلم بجملة حكمة أو كلمة بليغة ، فكانت الأنواع التى عمت في هذه المجالات هى الخطبة والوصية والمثل والحكمة .

و جاء الإسلام بكلام نثرى رصين مبين هو القرآن الكريم وتكلم الرسول الكريم ﷺ بكلامه البليغ ، فأصبحت للعرب ثروة من النثر الفنى البليغ تضاءل أمامه الشعر وخف تأثيره ، وأقبل العرب على الكلام القرآنى يستفيدون منه ، وعلى كلام الرسول ﷺ يتبعونه ، وعظم استعمال النثر بحكم الحياة الاجتماعية المتجددة ، نشأ منه للمسلمين أدب النثر ، ونماذجه الأولى هى كلام الرسول ﷺ وصحابته من أحاديث و خطب ، و بدأ العهد الأموى بحاجة إلى النثر بصورة أشد بحكم مقتضيات الشؤون السياسية والدعوية والاتصالات الاجتماعية ، و قويت من أنواع النثر الفنى في هذا العهد الخطابة و الرواية والترسل ومنها التوقيعات .

الخطـــابة :

أما الخطابة في هذا العهد فكانت استمرارا للخطابة في صدر الإسلام الأول ولكن زادت فيها أمور ، منها أن الخطبة طالت ، ذلك لأنها صارت تستخدم لتبليغ أوامر الدولة ، وقد كثرت تلك الأوامر باتساع رقعة الدولة واقتضى تطور الحياة الإدارية والسياسية واتساعها بحكم الفتوح إلى بسط القول في ذلك ، ومن هنا جاء طول الخطبة في الدرجة الأولى ، ثم عرف صدر العصر الأموى ثورات و حروبا و احتاج الولاة والقواد إلى تصريف القول بالإقناع وبالوعيد عند مخاطبة الجموع، فاقتضى ذلك أن تكون الخطبة أطول مما كانت في الجاهلية أو في صدر الإسلام الأول ، وأهم ما يميزها هى عذوبة ألفاظها ومتانة أسلوبها وقوة تأثيرها واقتباسها من القرآن واتباعها لمنهجه في الإرشاد والإقناع وابتداءها بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ . وتمتاز الخطب الأموية بعنصر التهديد والوعيد ومراعاة نفسية المخاطبين العقلية والدينية ، وظل الاستشهاد في الخطب بالأمثال والشعر على ما كان عليه الأمر في صدر الإسلام و قبله .

أعـلام الخطـابة :

أما أعلام الخطابة في هذا العهد فهم زياد بن أبيه وسحبان وائل ، والحجاج بن يوسف الثقفى والحسن البصرى ، وقطرى بن الفجاءة وبعض الآخرين .

زيـــاد بن أبيـــه

ولد زياد في مكة المكرمة في السنة الأولى من الهجرة من امرأة تسمى سمية وكانت جارية من الطائف من النساء المتزينات للرجال ولم يعرف الناس والد زياد فسموه زياد بن سمية ثم اشتهر باسم زياد بن أبيه .

و نشأ زياد ذكيا فطنًا داهية منفذًا لإرادته وعد من دهاة العرب ، وهم أربعة ، معاوية بن أبى سفيان ، والمغيره بن شعبة ، وعمرو بن العاص ، وزياد ابن أبيه .

سكن زياد في البصرة وكان من أنصار على بن أبى طالب كرم الله وجهه و وفيا له فولاه على فارس فقام بحكمها خير قيام وحاول معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما استمالة زياد إلى نفسه لما عرف من دهائه وصرامته ولكنه امتنع .

ولما استشهد على بن أبى طالب كرم الله وجهه وأعلن معاوية ﷺ بأن زياد من أولاد والده أبى سفيان بن حرب و ذلك بسبب اتصال والده بسمية في حالة كفرهما واعترف بذلك معاوية به كأخ له من والده وبه قرب معاوية ﷺ زيادًا إلى نفسه حتى لحق به زياد ، و ولاه معاوية ﷺ على البصرة وضم إليها الكوفة فيما بعد فكان واليا على المصرين وملك زياد العراق خمس سنوات فضبطه و أقر الأمن فيه .

توفي زياد في الكوفة في شهر رمضان ٥٣هـ بمرض الطاعون .

كان زياد بن أبيه من مشاهير الخطباء ، كان شديدًا في الحق إلى حد العسف و كان فيه الحلم والكياسة أيضًا ، و كان في خطبه حاضر الذهن طلق اللسان ، يطيل الخطب ويجيد ، وكانت ألفاظه فصيحة وتراكيبه واضحة

وأسلوبه جزلا متينا ، وكان يعتمد على الوعيد والتهديد ويؤثر على السامعين.

خطبتـــه

"أما بعد ! فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاءكم ، ويشتمل عليه حلماءكم ، من الأمور العظام، ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمدى الذى لا يزول ، أتكونون كمن طرفت عينيه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ؟ ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه ، من تركككم الضعيف يقهر ، والضعيفة المسلوبة بالنهار لا تنصر ، والعدد غير قليل ، والجمع غير مفترق ، ألم يكن منكم نهاة يمنعون الغواة عن دلج الليل وغارة النهار؟ قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على النكر ، كل امرئ منكم يرد عن سفيهه صنع من لا يخاف عاقبة ولايرجو معادًا ، ما أنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوسا في مكانس الريب ، حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقًا ، إنى رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله ، لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، و إنى لأقسم بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول : انج سعد فقد هلك سعيد. أو تستقيم قناتكم ، إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة ، فاذا تعلقتم على بكذبة فقد

حلت لكم معصيتى ، فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها في ، واعلموا أن عندى أمثالها ، من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله ، فإياى و دلج الليل. فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، و قد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتى الخبر الكوفة و يرجع إليكم ، وإياى ودعوى الجاهلية ، فإنى لا أجد أحدًا دعا بها إلا قطعت لسانه ، و قدأحدثتم أحداثًا لم تكن و قد أحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن أغرق قومًا أغرقناه ، ومن أحرق قومًا أحرقناه ، ومن نقب بيتًا نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبرًا دفناه فيه حيا ، فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكف عنكم يدى ولسانى ، ولاتظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، و قد كان بينى وبين قوم إحن ، جعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى ، وإنى لو علمت أن أحدكم قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعًا ، و لم أهتك له سترًا حتى يبدى لى صفحته ، فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدو منا سيسر و رب مسرور بقدومنا سيبتئس.

أيها الناس : إنا قد أصبحنالكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفئ الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، و أيم الله ، إن لى فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاى ".

سحبان وائـــــل

هو سحبان بن زفر بن اياد من بنى وائل بن ربيعة و يعرف أيضًا باسم سحبان وائل الباهلى ، ولد و نشأ في الجاهلية و لكن لم يبلغ أشده إلا في

الإسلام ، واتصل بمعاوية بن أبي سفيان ﷺ و نال لديه حظوة كبيرة يوم كان معاوية واليا ثم لما أصبح خليفة ، وكان يطلبه إذا جاءه وفد ودعت الضرورة إلى إلقاء خطبة مناسبة جامعة .

و كان سحبان خطيبًا غمر البديهة قوى العارضة متصرفًا في فنون الكلام طويل النفس يتكلم ساعات طوالا فلا يتردد ولا يتلعثم ولا يفتر ، وقد ضرب به المثل في القدرة على الخطابة ، وسمى خطيب العرب و هو بعد ذلك من الحكماء المشهورين والفصحاء البلغاء ، و كان لايخطب إلا بمخصرة ترضيه و كانت له مخاصر كثيرة و خاصة به .

و اشتهر سحبان وائل بخطبته الشوهاء عند معاوية ، و قيل لها الشوهاء من حسنها ، وكان لسحبان شعر قليل على أن الذى وصل إلينا من آثاره كلها نزر يسير جدًا ، توفي سنة ٥٤هـ .

نموذج من خطبته

إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ، أيها الناس فخذوا من دار ممركم إلى دار مقركم ، ولا تهتكوا أستاركم ، عند من لا تخفى عليه أسراركم وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حييتم ولغيرها خلقتم ، إن الرجل إذا هلك قال الناس ما ترك ؟ وقالت الملائكة ما قدم ، فقدموا بعضها يكون لكم ، ولا تخلفوا كلا يكون عليكم .

قطرى بن الفجاءة

كان قطرى بن الفجاءة فارسا شجاعا مقداما و كان خطيبا وشاعرا ومر ذكره و نموذج شعره في باب سابق ، أما خطبه فأكثرها في الحث على

التقوى والتزهد في الدنيا قتل في سنة ٧٨هـ خطب يوما فقال .

" أما بعد ! فإني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة حفت بالشهوات و راقت بالقليل ..... غرارة ، ضرارة ، خوانة غدارة لا خير في شئ من زادها إلا التقوى ، من أقل منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ويهلكه ".

الحجاج بن يوسف الثقفي

ولد الحجاج بن يوسف الثقفي في سنة ٤٢هـ في مدينة الطائف ونشأ في أسرة مثقفة متعلمة كان هو وأبوه وأخوه معلمين في الطائف ثم إن الحجاج ترك التعليم والتحق بالجيش الأموى و ما زال يترقى في مرتبته حتى أسند إليه الخليفة عبدالملك بن مروان قيادة جيش لمحاربة عبدالله بن الزبير في مكة وانتصر الحجاج عليه ، ثم ولاه عبدالملك على الحجاز واليمن ثم أضاف إليه الولاية على العراق ، وأقر الحجاج الأمن في العراق وسفك دماء طائفة من معارضى الحكم الأموى وأسر عددا كبيرًا منهم ولم يستثن من ذلك طائفة من الصحابة رضى الله عنهم أيضًا ولا تابعيهم البررة ، و كان الحجاج قائدًا قاسيًا شديدًا .

قد امتاز بالخطابة فقد جمع بجميع خصائص عصره فيها من جزالة اللفظ ومتانة التركيب وقصر الجمل والموازنة بينها مع قلة السجع والصناعة في خطبه و كان يقتبس من القرآن الكريم والشعر والأمثال توفي في سنة ٩٥هـ .

نموذج من خطبته

" إنى والله يا أهل العراق ومعدن الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق

ما يقعقع لى بالشنان ولا يغمز جانبى كتغماز التّين ، ولقد فررت عن ذكاء وفتشت عن تجربة وجربت إلى الغاية القصوى، وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدنى أمرها عودًا وأصعبها مكسرا فرماكم بى لأنكم طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقدالضلال وسننتم سنن الغى .

ما والله لألحونكم لحو العصا ولأقرعنكم قرع المروة ولأعصبنكم أعصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الابل فإنكم لكأهل" قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون " و إنى والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فريت وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم و أن أوجهكم إلى محاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه ".

الحسن البصرى

كان الحسن بن يسار البصرى من رواة الحديث وقصاصًا واعظًا وخطيبًا قيل فيه " أخطب الناس صاحب العمامة السوداء " أى الحسن البصرى كما كان فصيحا بليغًا بارعًا في اللغة والفقه تقيًا زاهدًا واسع الحلم حسن الأخلاق ، كان " يسار " والده قد سبى في جنوبى العراق في أيام الفتوح ثم جيئ به إلى المدينة فأسلم وأصبح مولى لزيد بن ثابت الأنصارى .

و ولد له الحسن البصرى في المدينة في سنة ٢١هـ و هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصرى نشأ في شمالى الحجاز ثم انتقل إلى البصرة و ولى

فيها القضاء ومن تلاميذه واصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال . اعتزل عن أستاذه فسمى مذهبه اعتزالا. وخطب الحسن البصرى في نهى قتال المسلمين :

" أيها الناس الزموا رحالكم ، وكفوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولايقتل بعضكم بعضًا على دنيا زائلة وطمع فيها يسير ليس لأهلها بباق ، ليس الله عنهم فيما اكتسبوا براض ، إنه لم يكن فتنة إلا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التيه والخيلاء ، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفى والمعروف التقى ".

وللحسن البصرى كلام بليغ في الموعظة والتبصير بالحق ، توفي أول رجب سنة ١١٠هـ .

الفصل الثانى

الكتـــابة والترســل

كان العرب في عهد جاهليتهم يقتصرون بالكلام الشفهى ولم يكونوا يلجأون إلى الكتابة إلا نادرًا ، وذلك عند حاجتهم إلى كتابة عقود أو إرسال رسالة و ذلك في حالات محدودة فقد كانت حياتهم بسيطة وبدوية ، مفككة وحداتها الاجتماعية وكانوا أميين لا يعرف الكتابة إلا أفذاذهم فكانوا يكتفون بقول الشعر ويتناشدون به ، ويعبرون به عن مشاعرهم و تصوراتهم و كانوا يستخدمون الخطابة عند حاجتهم إلى الحجاج أو الابلاغ والرواية لنقل حوادثهم الماضية أو وقائعهم المهمة والشعر الذى قيل فيها و كانوا يقومون بالوصية لإعطاء النصح والإرشاد الفردى و كل ذلك كان يكفيهم فيه الكلام الشفهى .

ولما جاء الإسلام وقام نظامه الاجتماعى اقتضى الأمر مع الخطابة إلى الاستعانة بالكتابة أيضًا وبخاصة لتوسع أطراف الحياة الاجتماعية واقتضاء شؤون تتصل بالمعاملات .

وبدأت الكتابة في إطار الرسائل بصورة أوسع ، و كان أسلوبها موافقًا لأسلوب الخطبة والوصية ، تصبح الرسالة بذلك كأنها خطبة مكتوبة ، يتصف أسلوبها بجزالة اللفظ وفخامة التراكيب مع الموازنة والاختصار ،

والبدء بالبسملة والتحميد ، واقفا عند الغرض خاليا من التطويل والتجميل والمبالغة .

وبقيت كتابة الرسائل على هذا المنهج في صدر الإسلام و في أوائل العهد الأموى إلى أن ولى الخلافة وليد بن عبدالملك فأمر بتجويد القراطيس وتفخيم الخطاب وألا يكاتب بما يخاطب به السوقة ، وجرى العمل على ذلك من بعده حتى استخلف عمر بن عبدالعزيز ثم يزيد بن عبدالملك فحملهما الورع ومقت البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف ، فبقيت الكتابة على ذلك مع شئ من الأخذ من التطور والتحسين إلى أن جاء عبدالحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بن أمية ، فأسهب في الرسائل ومقها ورققها وأطال التحميدات في أولها .

كان الكاتب في أيام الخلفاء الراشدين شخصا يختاره الخليفة ويجعله في بطانته ، أما في الدولة الأموية فقد أصبح للكتابة مناصب جعل لها ديوان خاص ، وأصبحت الكتابة قبل أن ينقضى العصر الأموى صناعة ذات قواعد وأصول ، وكثر الكتاب وأصبحت لهم آداب نصحهم بها عبدالحميد بن يحيي في إحدى رسائله وذكرها بإسهاب ، وهو كاتب يعد إمامًا في هذا الفن لتطويره له وتقعيد بعض أسسه .

عبدالحميد بن يحيى الكاتب

هو أبو غالب عبدالحميد بن يحي بن سعد ، وكان سعد مولى لأحد بنى عامر بن لؤى بن غالب فكان عبدالحميد مولدًا من أصل فارسى أو آرامى ولد في سنة ٦٠هـ بمدينة الأنبار في العراق ، ثم انتقل أهله إلى الرقة بالشام

وكانت نشأته هناك ، واشتغل عبدالحميد في أول الأمر بتعليم الصبيان ، وتعلم صناعة الكتابة ، فكتب ليزيد بن عبدالملك ، ثم اتصل بمروان بن محمد واشتغل بالكتابة له إلى نهاية خلافته ، ولما انهزم مروان بن محمد وانتهت به الخلافة الأموية كان عبدالحميد في من قتل من أشياع بنى مروان وكان مقتله مع مروان بن محمد في سنة ١٣٢هـ .

كانت ثقافة عبدالحميد بن يحيى في العلوم الإسلامية والعلوم العربية واسعة ، وكان يعرف الفارسية واطلع على بلاغتها وآدابها ، ويظهر أنه استفاد منها لصالح الكتابة العربية كذلك .

كان عبدالحميد بن يحيى أول من هذب فن الترسل ، ورقاه إلى صناعة وكانت طريقته تتفق مع القديمة في الرشاقة والجزالة ، وتختلف عنها في الأسلوب والوضع ،فأصبح بذلك إماما للكتاب وزعيما للطبقة الأولى من طبقات الكتابة الأدبية وفن الترسل، وكان يعترف بفضل سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه في الكتابة على نفسه ويرى نفسه تلميذاً له .

وكان من خصائص أسلوب عبدالحميد تنويع الخطاب موافقة لمخاطبه والإيجاز والإطناب مراعاة لمقتضى الحال والتفنن في البدء والختام مطابقة للغرض وإطالة التحميدات في صدور الرسائل غير أن أسلوبه لم يخرج في ابتكاره وتجويده من الإطار العربى القديم ومن غلبة خصائصه وطريقته بوجه عام ، ولقد بنى أساسه على استفادته من رسائل سيدنا على ﷺ وكان يعترف بذلك .

وقصر عبدالحميد جهده على كتابة الرسائل منها ماهى مطولة مفصلة و منها ماهى مختصرة قصيرة .

ومن رسائله المختصرة رسالة كتبها وهو منهزم مع مروان بن محمد في إحدى حروبه الأخيرة .

" أما بعد ! فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطا عليها ، وشكاها مستزيدًا لها ، وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحلبناها ثم جمحت بنا نافرة ، و رمحتنا مولية ، فملح عذبها وخشن لينها فأبعدتنا عن الأوطان وفرقتنا عن الإخوان ، فالدار نازحة والطير بارحة وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعدًا ، وإليكم وجدا ، فإن تتم البلية إلى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار عدونا نرجع إليكم بذل الأسار والذل شرجار، نسأل الله تعالى الذى يعز من يشاء ، ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة في دار آمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين ".

وله رسالة مفصلة في وصف الصيد ومنها :

" وأطال الله بقاء أمير المؤمنين مؤيدًا بالعز ، محفوفًا بالكرامة ، ممتعا بالنعمة ، إنه لم يلق أحد من المقتنصين ولا منح متطرف من المتصيدين إلا دون ما لقانا الله به من اليمن والبركة ، ومنحنا من الظفر والسعادة في مسيرنا من كثرة الصيد ، وحسن المقتنص وتمكين الجاسة وقرب الغاية وسهولة المورد وعموم القدرة ".

والرسالة ضافية طويلة فيها ذكر مفصل عن وقائع الصيد إلى أن يقول في آخرها : " حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد والله المنعم الوهاب".

الفصل الثالث

التوقيعـــات والروايـــات

التوقيعات :

هى فقرات كان يكتبها الوالى أو نائبه على عرائض أهل الطلب والشكوى ، وتكون متصفة بالإيجاز البليغ و روعة المعنى ، وقد بدأت منذ صدر الإسلام فقد وردت من الخلفاء الراشدين ثم من خلفاء بنى أمية وهى تشبه في شكلها العام جمل الأمثال والحكم .

نماذج من التوقيعات :

وقع عمر بن الخطاب ﷺ إلى سعد بن أبى وقاص في بنيان يبنيه ، "أين ما يكنك من الهواجرو أذى المطر" ووقع إلى عمرو بن العاص " كن لرعيتك كما تحب أن يكون لك أمرك "ووقع على بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى طلحة بن عبيدالله ،" في بيته يؤتى الحكم " ووقع في كتاب جاء من الحسن بن على ﷺ ،" ورأى الشيخ خير من جلد الغلام " ووقع في كتاب سلمان الفارسى رضى الله عنه وسأله كيف يحاسب الناس يوم القيامة "يحاسبون كما يرزقون".

ووقع عبدالملك بن مروان في كتاب أتاه من الحجاج " جنبنى دماء بنى

عبدالمطلب، فليس فيها اشفاء من الطلب ." وكتب إليه الحجاج يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يقاسي منهم ويستأذن في قتل أشرافهم فوقع له "إن من يمن السائس أن يتألف به المختلفون و من شؤمه أن يختلف به المؤتلفون ".

الروايات والتدوين :

واقتضى وجود ثروة من الروايات الدينية والأدبية أن يجمع المهم المفيد منها في الكتب لتبقى للأجيال القادمة وليستفيد بها عدد أكثر كما أن الحفاظ بها يكون أسهل وأضمن ، وقد كان القرآن الكريم يجمع ويكتب بأيدى رجال قررهم رسول الله ﷺ لذلك وأراد بعض الصحابة أن يجمعوا أحاديث الرسول ﷺ ويكتبوها ولكن رسول الله ﷺ لم يشجع كتابة الحديث لئلا يختلط بالقرآن الكريم فاكتفى الصحابة رضى الله عنهم بروايتها الشفوية و كانت الأخبار والأحداث العربية أيضًا تنقل بالشفاه على الطريقة العربية ، وتوسع وتنوع التراث الدينى والثقافى وشاع التعليم فاقتضى الأمر أن تحفظ الروايات الشفوية بالكتابة حتى لا يشتبه الأمر في المعارف الدينية ولا يضيع العلم ،فظهر الاهتمام بذلك من أمراء المسلمين أولا حيث اقترحوا على علماء زمانهم بالاعتناء بذلك فبدأوا بهذا العمل في مجالات عديدة من الدين والمعارف المفيدة ، واهتموا بالتدوين لجوانب من المعارف الأدبية والعلمية والدينية ، وتدرج العمل من البساطة إلى التوسع أفضى إلى تكوين مكتبة واسعة للمعارف الدينية والأدبية من حديث وسيرة وتفسير وتاريخ ، ومن علم اللغة والنحو والصرف وغيرها ، كان من أوائل البادين بالعمل محمد بن مسلم ابن شهاب الزهرى في الحديث وأبو الأسود الدئلى في النحو والإعراب ، وتدرج العمل فبرز أئمة وعظماء في تدوين النواحى المختلفة للدين ، الأدب والحكمة والثقافة .

الفهـــرس

كلمة المؤلف بقلم المؤلف ٣-٤

القسم الأول

صدر الإسلام

المدخل إلى العهد الجديد ، الحياة العربية قبل ظهور الإسلام ، والوضع الاجتماعى ،الإطار الجمهورى ، الأمية مع البراعة اللغوية والأدبية ، التمتع بالهوى والرغبات والنظرة إلى المرأة وطلب الشهرة ، السخاء والشجاعة ، طلب الثأر و إغاثة الملهوف ،الحالة الدينية ، ظهور الإسلام وتأثيره ، مبادئ دعوة الإسلام.....٧-١٧

الباب الأول

أصول الأدب الإسلامي

الفصل الاول

تأثير الدين الإسلامي في حياة العرب

نظرة الإسلام إلى الأدب ، الروح الإسلامية للأدب ، اعتناء الصحابة بالشعر ، المفهوم الإسلامي للأدب ، أهمية النثر في العهد الجديد ٢١-٢٧

الفصل الثانى

دعائم أدب العهد الجديد

الأدب المأثور ، ظروف الحياة الجديدة ، القرآن الكريم ، أسلوب القرآن ، طريقته بين الطريقتين ، جمال العبارة وعذوبة الصوت ، موافقته للنفسية والوضع وتنوع عباراته حسب المقتضى والمعنى ، الفخامة والرقة ، الجمال

الصوتى والتناغم ، ضرب الأمثال ، تصوير المعانى والمشاهد ، الأقسام ، فروق المعنى ودقائقها ، صوتية الألفاظ ، التشريع ، القصص ، الموعظة والهداية ، تأثير القرآن في الأدب ٢٨-٣٩

الباب الثانى

الفصل الأول

النثر وأعلامه

نمو النثر وقوته ، النثر الفنى في هذا العهد ، محمد رسول الله ﷺ وكلامه خير نموذج لأدب النثر العربى ، كلامه نثر وليس شعرًا ، خصائص كلامه وأصنافه، أبرز أقسامه الأدبية ، أحاديثه ، تمثيلاته ، خطابته ، أدعيته ، أقواله السائرة. ٤٠-٥٠

الفصل الثانى

نصوص النثر الفنى للآخرين من هذا العهد

الخطابة ، أبوبكر الصديق ، سيرته وأخلاقه ، نموذج من خطبته ، عمر بن الخطاب ، سيرته وأخلاقه ، نموذج لخطبته ، على بن أبى طالب ، سيرته وأخلاقه ، الكتابة ، الرسائل والعهود والعقود ، الرواية ٥١-٦٥

الباب الثالث

الفصل الأول

(الف) الشعر في صدر الإسلام

شعراء هذا العهد ، نماذج شعر هذا العهد : في الحماسة والفخر والمديح ، في الاعتذار والاستعتاب والعتاب ، في الغزل والشباب ، في الحكمة والرثاء ٦٩-٨٢

الفصل الثانى

أعلام الشعراء وكلامهم

من شعراء الإسلام ، عبدالله بن رواحة ، نماذج من كلامه ، كعب بن مالك الأنصارى ، نماذج من كلامه ، حسان بن ثابت الأنصارى ، نماذج من كلامه في الحماسة والفخر ، في رثاء الرسول ﷺ ، في الحكمة (ب) من عامة المخضرمين الأعلام ،الحصين بن الحمام المرى، كعب بن زهير ، أبو ذؤيب الهذلى، الخنساء ، الحطيئة ، النابغة الجعدى ٨٣-١٠٣

القسم الثانى

عهد بنى أمية

الباب الأول

أدب هذا العهد ، أسسه وأصنافه ١٠٧

الفصل الأول

العوامل والمؤثرات

الخلفية الاجتماعية والسياسية ، الحالة الاقتصادية والثقافية ... ١٠٨-١١٢

الفصل الثانى

أغراض الأدب وأقسامه

النثر ، الشعر ١١٣-١١٦

الفصل الثالث

نهضة جديدة للشعر

النهضة الشعرية ، المناطق الشعرية ، العراق ، الشام، الحجاز ،تطورات جديدة للشعر، الغزل الرقيق ، الشعر الجدلى ، النقائض ، التأثير الدينى في الشعر ، الرجز ١١٧-١٢٣

الباب الثانى

الشعر و رجاله في هذا العهد

الفصل الأول

الغزل

الغزل العفيف ، قيس بن ذريح ، قيس بن الملوح ، نموذج من شعره ، توبة بن الحمير وليلى الأخيلية ، تقول ليلى الأخيلية في رثاء توبة ، جميل بن معمر صاحب بثينة ، كثير بن عبد الرحمن صاحب عزة ، الغزل الإباحى ، عمر بن أبى ربيعة ، الغزل العام ،عدى بن الرقاع العاملى ، ذو الرمة ، عروة بن أذينة..... ١٢٧-١٣٩

الفصل الثانى

أغراض أخرى

شعر السياسة والدين ، كعب بن جعيل التغلبى ، مسكين الدارمى ، شعر الأدب والحكمة والحماسة ، مسكين الدارمى ، المقنع الكندى ، سعد بن ناشب، قطرى بن الفجاءة ، الرجز ، أبو النجم الراجز. ١٤٠-١٤٦

الفصل الثالث

شعر النقائض ، الأخطل ، نموذج من شعره ، الفرزدق ، نموذج من شعره ، جرير ، نموذج من شعره ١٤٧-١٥٨

الفصل الرابع

الطرماح بن حكيم ، نموذج من شعره ، الكميت بن زيد الأسدى ... ١٥٩-١٦٢

الباب الثالث

النثر و رجاله

الفصل الأول

النثر في هذا العهد وأعلامه

الخطابة ، أعلام الخطابة ، زياد بن أبيه ، خطبته ، سحبان وائل ، نموذج من خطبته ، قطرى بن الفجاءة ، الحجاج بن يوسف الثقفى ، نموذج من خطبته، الحسن البصرى ١٦٥-١٧٣

الفصل الثانى

الكتابة والترسل

عبد الحميد بن يحيى الكاتب وله رسالة مفصلة في وصف الصيد.. ١٧٤-١٧٧

الفصل الثالث

التوقيعات و الروايات

التوقيعات ، نماذج من التوقيعات ، الروايات والتدوين ١٧٨-١٧٩